أجاثا كريستي

العدوّ الغامِض

دار النجمة للنشر والتوزيع

العدوّ الغامض

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

العدوّ الغامض

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

مقدمة

على حين بغتة ثارت العاصفة هوجاء مدمرة والأمواج عاتية ثائرة تكتسح وتجرف كأنها سيل لا يُبقي ولا يذر، فمالت «الباسيفيك» على جانبها وغاصت مقدمتها في الماء ولم يعد ثمة شك في أنها سوف تغرق، ثم أُنزلت قوارب النجاة فتجمّع الركاب صفوفاً متراصّة يترقبون دورهم في النزول إلى القوارب، وفي مقدمتهم النساء والأطفال وقد ارتسم على وجوههم الفزع والرعب.

كانت الفتاة متباعدة عن الصفوف المتزاحمة دون أن تكون بوجهها بادرة من الخوف أو الانزعاج، وفي غمرة الأصوات الصاخبة والصراخ سمعت الفتاة صوتاً بجانبها، وكان الصوت يقول: يا آنسة.

استدارت الفتاة لترى الشخص الذي ناداها، فعرفته على الفور، وكانت قد لمحته من قبل مرة أو مرتين بين ركاب الدرجة الأولى، وقد أثار مرآه خيالها، خيال فتاة لا تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً، فقد بدا لها حينئذ منطوياً على نفسه معتزلاً الناس لا يتحدث إلى أحد كما تتسم معالم وجهه بالغموض.

تقدم الرجل الغامض خطوة ناحية الفتاة ثم أدار عينه فيمن حوله بنظرة تشوبها الشكوك وقد انعقدت على جبينه حبات من العرَق، ثم تلاقت عيناه بعينَي الفتاة فبدا لها الرجل متوددا في يأس وقنوط، ثم سمعَته يغمغم: لا مفرّ من ذلك، تلك هي الوسيلة الوحيدة.

ثم رفع صوته إليها فسألها: هل أنتِ أمريكية؟

فأجابت: نعم.

- وهل أنتِ وطنية مخلصة؟

فتضرّج وجهها احمراراً، ثم رمقته بنظرة فيها لمسة من عتاب قائلة له: ما كان ينبغي أن تداخلك الريبة في أمري. أنا وطنية مخلصة طبعاً.

فقال: لا تستشعري الإهانة من قولي، فلو أنك عرفت ما يدور عليه سؤالي لالتمستِ لي العذر.

ثم أردف: يجب أن أعثر على شخص أثق فيه، امرأة على الأقل.

فتساءلت: ولماذا امرأة بالذات؟

- لأنهم يعملون على إنقاذ النساء والأطفال قبل الرجال، فمن المحتمَل أن نغرق نحن الرجال مع الباخرة.

ثم أردف: معي أوراق على غاية كبيرة في الأهمية. حكومتنا تعاني بعض المشكلات وهذه الوثائق كفيلة بإنقاذ الموقف، فإذا أنتِ أخذتها منّي فقد تسنح الفرصة لنجاتك ونجاتها، فهل تقبلين

أن أعهد إليك بهذه المهمة؟

وكان جواب الفتاة أن بسطت إليه يدها تشدّ الأوراق، فقال لها: لحظة واحدة. يجب أنذرك بما ينطوي عليه هذا العمل من خطر. هناك من يتعقب خطواتي وستجدين نفسك مهددة بالأخطار، فهل لديكِ من الشجاعة ما يحملك على قبول هذه الوثائق رغم ذلك؟

بدت على شفتي الفتاة ابتسامة خفيفة ثم قالت: أنا فخورة بأن اختيارك وقع عليّ، ولكن ما الذي سأفعله بها عندما أنزل إلى البرّ؟

- اقرئي صحيفة التايمز، فسأنشر فيها إعلاناً أستهلّه بهذه الكلمات «إلى رفيقة السفر»، فإذا لم يظهر هذا الإعلان خلال ثلاثة أيام فمعنى هذا أنني متُّ غرقاً، حينئذ يجب عليكِ أن تذهبي إلى السفارة الأمريكية ثم تطلبي مقابلة السفير شخصياً وتسليمه هذه الوثائق يداً بيد. هل وعيت ما أقول؟

- تماماً، فكن مطمئناً.

فقال بصوت عالٍ وهو يصافحها: والآن حانت لحظة الوداع. إلى اللقاء، وأرجو لك حظاً سعيداً.

وكانت في كفه لفافة صغيرة دفع بها إلى يدها في الخفاء، وما هي إلا لحظات حتى ناداها الضابط الذي يتولى عمليات الإنقاذ فبادرت لتستقر في أحد قوارب النجاة.

* * *

الفصل الأول

- أهلاً بك يا تومي أيها الصديق القديم.

- أهلاً بكِ أيتها الصديقة القديمة كواتسو.

وقع هذا اللقاء بين الفتى والفتاة عند مغادرتهما المترو، ثم هتف الرجل: لقد مضى دهر دون أن نلتقي. إلى أين أنت ذاهبة؟ لم لا تصحبينني لنتناول قدحاً من الشاي؟

فابتسمت المرأة في وجهه وقالت: فليكن، هيا بنا.

ثم اتجها معاً إلى ميدان بيكاديللي فسألها تومي: حسناً، والآن إلى أين؟

ولم تغِب رنة القلق في صوت تومي عن أُذن الآنسة برودانس كاولي المعروفة بين الأخصائيين باسم «الآنسة كواتسو»، فسألته: تومي، هل تعاني أزمة مالية؟

- مَن؟ أنا؟ بالعكس، أنا أتقلب في أكوام الذهب.

ولكن كواتسو لم تقتنع بذلك فقالت: يا لك من كذاب كبير! أكاذيبك لا تخفى عليّ.

ثم تنهدت كواتسو وقالت: أتعرف كيف حالنا الآن؟ لقد

فصلوا نصف الممرضات بسبب الأزمة الاقتصادية.

- وهل أنتِ من بينهن؟

فأومأت إيجاباً ثم سألته: وأنت؟ هل أنت أيضاً عاطل عن العمل؟

فأجاب: منذ تخرجتُ في كلية جيني وأنا لم أمارس عملاً على الإطلاق.

- يا لكَ من مسكين أيها الطفل العزيز! وكيف تعيش؟

- على القليل الذي أناله من أبي.

وكانا قد بلغا مقهى ليون فتحولت إليه كواتسو قائلة: فلندخل هنا على أن يتكفل كل منا بنفقاته.

كان المقهى مزدحماً غاصّاً بالرواد فاضطُرّا أن يتريثا برهة في مدخله إلى أن تخلو إحدى الموائد، وتناثرت إلى آذانها كلمات الجالسين إلى الموائد القريبة وهم يتسامرون ويتبادلون الحديث، فسمعا مَن يقول: تصوّري يا عزيزتي أنها انفجرت باكية عندما قلتُ لها في النهاية...

فغمغم تومي: يا لها من أحاديث عابرة تطير إلى أذن المرء! لقد سمعتُ منذ لحظات رجلين يرددان اسم امرأة تُدعى جين فين. ألا ترينه اسماً عجيباً؟

وقبل أن تعقّب كواتسو بكلمة تركت امرأتان متقدمتان في السن مائدتهما فأسرعت كواتسو لتحتلّ أحد المقعدين، ثم جلسا يتناولان الشاي ويتسامران، فقال تومي: أتذكرين أننا لم نلتقِ منذ أيام المستشفى؟

فأجابت: نعم، هذا صحيح.

فاستطرد: يا له من تاريخ! الآنسة بودانس كاولي الابنة الخامسة للأب كاولي راعي كنيسة ليتل ميسينديل في سافولك.

فابتسمت كواتسو في حين مضى هو في سرد تاريخ حياتها. لقد هجرَت بودانس مسقط رأسها واستقرّت في لندن ثم التحقت بمدرسة الممرضات، وذات يوم قابلت رفيق الطفولة السيد توماس برسفورد (تومي)، وكانت لم تلتقِ به منذ خمسة أعوام. وبعد أيام تلقّت الممرضة كارولي من رئيستها لوماً لأنها شوهدت في السينما المجاورة في صحبة المريض توماس برسفورد، وبعد ذلك بفترة وجيزة فُصلت من عملها مع نفر من الممرضات بسبب الأزمة الاقتصادية، فتقلّبت في أعمال شتى ولكن على غير جدوى، فهي اليوم عاطلة لا تمارس عملاً، أيّ عمل.

وكانت قصة تومي أبسط من هذا وأقل تعقيداً، فقد حصل على شهادة من كلية جيني، ثم البحث المتواصل عن عمل، فالفشل المتواصل في الحصول على عمل، وخلال اثني عشر شهراً طويلاً ممتداً وهو يلهث هنا وهناك سعياً وراء وظيفة، حتى أيقن أن الوظائف لسبب ما قد اختفت ولم يعد لها وجود.

هزّت كواتسو رأسها بحيرة وأسى وسألته: وأهلك؟ أليسوا أغنياء؟

فهزّ رأسه نفياً فعادت تسأل: أليست لك عمة ثريّة يا تومي؟

- ليست لي عمة ثرية، ولكن لي خالاً يتقلب في أحضان

الذهب غير أنه لا أمل يُرجى من ورائه. لقد أراد أن يتبنّاني فرفضت فما كان منه إلا أن غضب عليّ.

- هل كان رفضك مراعاة منك لأمك؟

- نعم، فما كان من اللائق أن أتخلى عنها ولا ولد لها سواي، وكان خالي الخبيث يكرهها فأراد أن يبعدني عنها بأي ثمن.

- لقد عرفتك رجلاً نبيلاً رقيق المشاعر دائماً يا تومي. أتحسب أنني أحسن منك حالاً؟ لقد جاهدتُ مثلك وفشلت، واقترضت من كل قريب وبعيد حتى ضجروا منّي جميعاً، وراسلت جميع الإعلانات ولكن أحداً لم يفكّر في أن يرد عليّ، فحاولت وحاولت ولكن بلا فائدة، حتى أنفقت آخر بنس معي. والآن لم يعد أمامي مفرّ من أن أعود إلى مسقط رأسي.

فقال تومي معقّباً: وبذلك تُشبعين في نفسك الحنين إلى موطنك.

فهزّت كتفيها بغير اكتراث ثم قالت: وما جدوى العواطف في هذا المقام؟ الذي سيعيدني إلى قريتي الصغيرة هو الإفلاس وليس الحنين. لا أنكر أن أبي لطيف جداً وأنني أحبه كثيراً، ولكنني أخيفه وأفزعه لأنه قسيس من الطراز العتيق لا تروق له تصرفاتي، فهو يرى أن تدخين المرأة خطيئة جسيمة وأنا مولَعة بالتدخين كما تعلم، فما إن اعتزمت الرحيل إلى لندن حتى طاب نفساً بأن تواريتُ عن عينيه. ولا تنسَ أننا كنا في البيت سبعة أفراد لا همّ لنا إلا تدبير شؤون المنزل، الكنس والمسح والطهي، أما أنا فكنتُ دائماً الشاة السوداء المتمردة وسط النعاج المطيعة

المستسلمة. ولكن دعنا من هذا يا تومي، فالمشكلة الآن هي: ما العمل؟

وفجأة انفجرت كواتسو قائلة: تومي، اسمع. لقد فكرت طويلاً في الطرق المؤدية إلى اكتساب المال وهي لا يمكن أن تخرج عن ثلاث: أن تتزوج، أو أن ترث، أو أن تحصل عليه بطريقة ما.

ثم استطردت كواتسو قائلة: أما الزواج فلا رجاء لي فيه فكل الشباب الذين أعرفهم من الفقراء، فلا سبيل لي إلى رجل ثري. أما الطريقة الثانية، أيْ أن أرث قريباً غنياً، فهي مستحيلة أيضاً لأن كل أقاربي من الفقراء ولن أرث منهم إلا الديون.

فقال تومي: إذن لم تبقَ إلا الطريقة الثالثة، أي اكتساب المال عن طريق المغامرة.

فردّت كواتسو: تماماً، فالمغامرة هي الوسيلة الوحيدة لاكتساب المال، حتى لو أصبحنا من المغامرين ذوي الضمائر المرنة.

فقال تومي بمرح: ولِم لا؟ أنا أحب هذا، ولكن كيف نبدأ؟

- تلك هي المشكلة يا عزيزي، فلو كنا من المغامرين المشهورين لانهالت علينا الطلبات، ولن نرفض شيئاً حتى لو طلبوا منا أن نرتكب جريمة قتل ماداموا يدفعون.

فقال تومي: رائع، رائع جداً؛ خاصة وأنا أسمع هذا الرأي من ابنة قسيس محترَم مبجَّل.

فهزّت كواتسو كتفيها باستخفاف قائلة: فلنترك عبء المسؤولية الأدبية على أكتاف أهلنا، ثم إن هناك فرقاً كبيراً بين أن تسرق عقداً من اللآلئ لأنك شرير بالغريزة وأن تسرقه لأنك أخذت أجراً لكي تسرق.

- لن يكون هناك أيّ فرق على الإطلاق عندما تمثُلين أمام القاضي فيأمر أن يُزجّ بك في السجن.

فقالت: ربما، ولكن لن أسمح لهم بالقبض عليّ.

فقال تومي ساخراً: لقد كان التواضع من خصالك المعروفة.

- لا تحاول أن تهزأ بي. والآن لنعد إلى ما كنا فيه، لماذا لا نصبح من المغامرين؟ لِمَ لا نتعاون معا فنؤلف شركة للمغامرة؟

- هل ستكون الشركة لسرقة عقود اللآلئ؟

- كان هذا مجرّد مثال أيها الأبله. شركة المغامرة، يا لها من فكرة رائعة!

فمضى تومي في سخريته اللاذعة قائلاً: وأيّ نوع من الشركات تكون هذه؟

- شركة مساهمة مثلاً.

- وما الاسم الذي نطلقه عليها؟ شركة المغامرين الشبان وشركاهم، أليس كذلك؟

فقالت كواتسو: كفاكَ سخرية منّي! أنا جادّة فيما أقول.

- بالله عليك، كيف يكون الاتصال بالعملاء؟

- بالإعلان يا صديقي، بالإعلان. ألا تستطيع أن تدرك فائدة الدعاية في العصر الحديث؟

ثم أردفت: هل معك قلم وورقة؟

فناولها ورقة وقلماً فانكبّت على مائدة الشاي تكتب بعض الكلمات على الورق وهي تقول: فلنستهل الإعلان بهذه الكلمات شابّ عاطل عن العمل له قلب جسور وعقل ذكي راجح...

فضحك تومي قائلاً: أتستهلين الإعلان بهذه الأكذوبة الصارخة؟ أنا لست بالجَسور ولا الذكي.

فقالت كواتسو: أنسيتَ أنني وراءك أساندك وأوجّهك؟

- ولكني أكره المغامرات وأؤثر عليها إعلاناً أطلب فيه شخصاً يتبنّاني.

- هل نسيتَ أنك قلت لي منذ لحظات إنك أَبَيت في يوم ما أن يتبنّاك خالك؟ ثم إن الصحف مليئة بإعلانات عن طلبات للتبنّي. يجب أن نعلن عن شيء أصيل يسترعي الانتباه، فلنقل مثلاً: «شابان مغامران، رجل وامرأة، للإيجار. مستعدّان لأيّ عمل وفي أيّ مكان. الأجر مرتفع».

ثم استطردت كواتسو: أجل، يجب أن نشير إلى أن أجرنا مرتفع حتى ينظر إلينا قارئ الإعلان نظرة احترام وتقدير، ويجب أن نضيف أيضاً: «لا نردّ إلا على الطلبات الجادّة».

فقال تومي ضاحكاً: وهل ترين أن مثل هذا الإعلان له طابع جدّي.

فقالت: كفاك تثبيطا لهمّتي! سيكون الإعلان على هذه الصورة «مغامران من الشباب، رجل وامرأة، للإيجار. مستعدّان لأيّ عمل مهما كان وفي أيّ مكان. الأجر مرتفع». ما رأيك في مثل هذا الإعلان إذا أنت قرأته في إحدى الصحف؟

فأجاب تومي: سأقول على الفور أن هذين الشخصين إما أن يكونا مجنونَين وإما أنهما يمزحان.

فقالت: على أية حال هذا لن يكون أشد جنوناً من إعلان قرأتُه هذا الصباح يقول فيه صاحبه «بيتونيا، أين أنت؟» والإمضاء «حبيبك».

ثم ناولت الورقة لتومي وهي تقول: خذ، اذهب بهذا الإعلان إلى صحيفة التايمز فانشره، وأضف إليه الرقم السري الذي ترسَل إليه الردود. هذا الإعلان سيكلّفنا ستة شلنات وإليك ما يخصني، ثلاثة شلنات.

فتناول تومي ورقة الإعلان وطواها ثم وضعها في جيبه وقال: وما المانع؟ فعلى أية حال هو إعلان طريف وسأنشره على سبيل التسلية.

فقالت كواتسو بحماسة وانفعال: تسلية! لا يا صديقي. ما يدريك أن مثل هذا الإعلان قد يملأ جيوبنا بالمال؟ والآن فلنشرب نخب النجاح والمستقبل.

أفرغ كل منهما في جوفه ما تبقّى في فنجان الشاي،

ثم نهضت كواتسو واقفة وهي تقول: والآن لا بد أن أعود إلى قصري المنيف.

فقال تومي مازحاً: أما أنا فسأعود إلى جناحي الفاخر في فندق ريتز.

ثم أردف: ولكن أين نلتقي غداً؟ أين؟ ومتى؟

فأجابت: ليكن لقاؤنا غداً في الثانية عشرة ظهراً عند محطة المترو في بيكاديللي. أيوافقك هذا؟

- وقتي ليس متسعاً، فليكن لقاؤنا في هذا المكان وفي هذا الموعد.

وتصافحا بحرارة فقالت كواتسو: إلى اللقاء يا شريكي العزيز.

- إلى اللقاء يا شريكتي العزيزة.

ثم انصرفا معاً من المقهى، وعند بابه تصافحا من جديد ثم افترقا واتخذ كل منهما سبيله، هو إلى فندق ريتز المزعوم وهي إلى قصرها المنيف الذي لا يعدو أن يكون غرفة فوق سطح إحدى العمارات.

سارت كواتسو في طريقها فعبرت حديقة سان جيمس، وعندئذ سمعَت من ورائها صوت رجل انتزعها من خواطرها. وكان الرجل يقول: معذرة يا آنسة. هل تسمحين لي أن أتحدث إليكِ لحظة؟

* * *

الفصل الثاني

استدارت كواتسو حانقة إلى الرجل الذي تجاسر على أن يوجه إليها هذه العبارة، ولكن الكلمات تجمدت على شفتيها حين رأت أنه ليس في هيئته ما يبرر شكوكها، فقد بدا لها رجلاً محترَماً ليس من الطراز الذي يعابث النساء.

قال لها الرجل بصوت رقيق النبرات: اسمحي لي أن أؤكد لك أنني لست من الطراز الذي تظنين يا آنسة.

فسألته: وما الذي تريده مني؟

فابتسم قائلاً: لقد كنتُ جالساً إلى المائدة المجاورة في مقهى الشاي فسمعت الحديث الذي دار بينك وبين صديقك.

- وماذا في ذلك؟

- لقد خطر لي أنكِ يمكن أن تكوني ذات نفع لي، فلدي عمل لك.

ثم قدّم إليها بطاقته فنظرت فيها. كان اسمه السيد هوايتنغ مدير شركة أستونيا للاستيراد، وتحت هذه الكلمات عنوان مكتبه. واستطرد الرجل: إذا حضرتِ إلى مكتبي في الحادية

عشرة من صباح الغد أمكنني أن أُدلي إليك بتفصيلات ما أريده منك.

فصمتت كواتسو برهة مفكّرة ثم قالت: فليكن إذن، إلى اللقاء في الحادية عشرة غداً.

ها قد بدأت المغامرات التي تهفو إليها. تُرى ماذا عساه يريد هذا الرجل منها؟ ثم اتخذت قرارها على الفور، فاتجهت إلى أحد مكاتب البرقيات وبعثت إلى شريكها في شركة المغامرات برقية تقول فيها «لا تنشر الإعلان. الشرح غداً».

أجل، فغداً تلقاه وتذكر له أن المغامرة قد طرقت بابها وأن الطريق إلى الثراء أصبح ممهداً ميسوراً. ثم ذهبت إلى قصرها المنيف، تلك الغرفة الصغيرة القابعة فوق سطح إحدى العمارات، وباتت ليلتها تحلم بالثراء وتتساءل عما يبتغيه منها السيد هوايتنغ مدير شركة أستونيا للاستيراد. أتُراه يريد منها أن تستورد له الماس خفية؟ ولكن مهما يكن فهي الآن في طريقها إلى كسب المال من وراء إحدى المغامرات التي كانت تهفو إليها.

* * *

في تمام الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كانت كواتسو تطرق باباً عُلقت عليه لافتة صغيرة مكتوب عليها «شركة أستونيا للاستيراد»، واستقبلها موظّف كهل على عينيه نظارات سوداء فقالت له: أنا على موعد مع السيد هوايتنغ.

- إنه في انتظارك يا آنسة.

ثم قادها إلى باب في صدر البهو فنقر عليه ثم دعاها إلى الدخول.

كان السيد هوايتنغ جالساً إلى مكتب كبير تكدست فوقه الأوراق، فرفع رأسه عمّا كان منكبّاً عليه وقال لها: لقد حضرتِ إذن؟ أرجوك أن تجلسي.

جلست ثم أخذت تنظر مترقبة فقال: والآن سأصارحك بما أريده منك يا ابنتي العزيزة. أنت تبحثين عن عمل. حسناً، يوجد لديّ عمل لك، فما رأيك في مئة جنيه أجراً بخلاف النفقات؟

كادت كواتسو تقفز فرحاً ولكنها تماسكت وقالت تسأله بتؤدة: وما طبيعة ذلك العمل؟ هل تريد مني أن أقتل أحداً؟

فضحك ثم قال: عمل عادي، مجرَّد رحلة لطيفة إلى باريس.

- أهذا كل ما هنالك؟ في صحبتك طبعاً؟

قالتها ساخرة، فابتسم وقال: لو أنني كنتُ أصغر سناً بعشرين عاماً لأسعدني أن أطلب منك هذا. لا يا ابنتي، هذه رحلة عمل وستكونين بمفردك، وستقيمين هناك في نُزُل بشارع نويلي.

فسألته: أكلّ ما تطلبه مني هو أن أُقيم في ذلك النُزل؟ ولكن ما المدة؟

- هذا يتوقف على أشياء كثيرة، فربما يستغرق ثلاثة شهور.

- أليست هناك شروط أخرى؟

- لا شروط أخرى، وكل ما هو مطلوب منك أن تكوني عيناً لي ترين وتنصتين، ولكن لا تحاولي أبدا أن تتصلي بي؛ فالسرية أمر حتمي. أنت إنكليزية طبعا ولست أمريكية، أليس كذلك؟

- بلى، أنا إنكليزية، وهذه اللكنة الأمريكية التي في لساني ترجع إلى أن زميلتي الممرضة التي كانت معي في المستشفى كانت أمريكية الجنسية فتأثرتُ بها. ولكن دعني أوجه إليك سؤالاً يا سيد هوايتنغ: ما الذي يجعلك سخيّاً إلى حد أن تنفق عليّ عشرات الجنيهات لكي أتنزه في باريس؟

- لأنك فتاة مغامرة وذكية يمكن أن تقوم بدورها على وجه مُرض، كما أنك لست من الطراز الفضولي الذي يوجه الكثير من الأسئلة، كما أنك فتاة كتومة فيما أعتقد.

- شكراً لك، لكننا لم نُشِر بكلمة إلى السيد برسفورد حتى الآن.

فقال باستغراب: السيد برسفورد! ومن يكون؟ أنا لم ألحظه.

- شريكي، لقد رأيته معي بالأمس في مقهى الشاي.

- آه، هذا صحيح، ولكني في حاجة إلى فتاة وليس إلى رجل.

- في هذه الحالة لا بد أن أنسحب. أنا آسفة، فإما إن نعمل نحن الاثنين معاً وإما لا.

ثم نهضت كواتسو واقفة فقال لها: لحظة واحدة. أرجوك أن تجلسي، فربما وصلنا إلى اتفاق بشأن شريكك هذا يا آنسة...

وهمّت بأن تذكر له اسمها ولكنها ما لبثت أن أحجمت، فقد خطر لها أن رحلة باريس هذه قد تورّطها في شأن شائن، فماذا يكون موقف أبيها القس المحترَم إذا نُشر اسم الأسرة في الصحف مقترنا بإحدى الفضائح؟ ورأت أن تكتم اسمها وأن تذكر للسيد هوايتنغ اسماً مستعاراً، وكان أول اسم طرأ ببالها هو جين فين.

- اسمي جين فين.

ثم حملقت بدهشة إلى الرجل الجالس أمامها خلف مكتبه، فما إن انفرجت شفتاها عن هذا الاسم حتى تلاشت فجأة الابتسامة المرتسمة على شفتي السيد هوايتنغ واحمرّ وجهه غضباً وأطلّت من عينيه نظرة خوف واضحة، ثم انطلقت من بين شفتيه الكلمات الثائرة وهو يصرخ فيها: إذن فهذه هي اللعبة؟

نظرت إليه كواتسو بذهول وهي لا تدري سبباً لهذا الانقلاب العجيب، واستطرد: إذن فقد كنت طَوال الوقت تلعبين بي وتعبثين! لقد كنت تعرفين أنني في حاجة إليك فجئت إليّ لكي تقومي بهذه المهزلة.

ورويداً رويداً كظم ما في نفسه وتبدّدت من وجهه سمات الغضب، ثم قال لها بتؤدة: ولكن من الذي أفشى السر؟ أهي ريتا؟

ولم تكن كواتسو قد سمعت من قبل باسم ريتا ولم تكن تعرف أحداً بهذا الاسم، ومع ذلك فقد قررت أن تستمرّ على

ادعائها بأنها جين فين، ولكن إلى متى؟ خدعتها لا بد أن تنكشف إما عاجلاً أو آجلاً، فقالت بتمهل: لا، ليست ريتا التي تكلمت فريتا لا تعرف شيئاً عنّي.

ضاقت عينا هوايتنغ ثم قال: ليست ريتا أو سواها، المهم ما الذي تعرفينه؟

كانت كواتسو لا تعرف شيئاً عما يسألها عنه، ومع ذلك استبدت بها روح المغامرة فوجدت في نفسها الجرأة على أن تتحداه بأن قالت: ما أعرفه قليل محدود.

فقال هوايتنغ: أنا لا أصدقك، فلولا أنك تعرفين الكثير لما واتتك الشجاعة على أن تحضري إلى مكتبي لكي تواجهيني.

يا لها من مهزلة! إنه لا يدري أن الاسم الذي ذكرَته اسم مستعار وأنه أول اسم خطر ببالها على البديهة، وقالت كواتسو بتؤدة وبلا خوف: وما يدريك أن جين فين هو اسمي الحقيقي؟ هل تعتقد أنه ليس في الدنيا بهذا الاسم إلا فتاة واحدة هي تلك التي تتحدث عنها أنت؟

فقال: أتزعمين أن هناك فتاتين بهذا الاسم؟

- ولِمَ لا؟ ومع ذلك فمن المحتمَل أيضاً أنه اسم مستعار خطر ببالي فانتحلته عندما سألتَني عن اسمي.

فوجد السيد هوايتنغ نفسه في حيرة من إجابتها لا يدري إن كان جين فين اسمها الحقيقي أو اسمًا منتحَلاً مستعاراً، ثم عاد إلى هياجه فضرب المكتب بقبضته وقال ثائراً: كفاكِ عبثاً بي! ما الذي تعرفينه؟ وكم تريدين؟

فأعياها الجواب وأُرتج عليها، فما الذي تعرفه؟ لم تكن تعرف شيئاً على الإطلاق. وكم تريد؟ حتى هذا لا تعرفه، فما ذلك الشيء الخفيّ الذي يريد السيد هوايتنغ أن يدفع له ثمناً؟ وتريثت برهة مفكرة ثم أجابت: اسمع يا سيد هوايتنغ. أنا أشاطرك الرأي في أنه يجب أن نلعب على المكشوف دون أن نلجأ إلى المداراة. لقد ذكرتُ لك اسماً فلك مطلق الحرية أن تصدّق أنه اسمي كما أنك حر في أن تعتقد أنه اسم منتحَل، المهم أنني لن أقول لك أكثر من ذلك ولن أعدك بالمزيد من المعلومات.

فقال السيد هوايتنغ في صوت انفجرت فيه نبرات الغضب: أما كفاك سخرية بي؟ أنتِ تعرفين الكثير. أنا موقن من هذا.

فرأت كواتسو أن أنسب جواب على هذا السؤال لكي تحتفظ بالحقيقة هو أن تقول: لن أعارضك فيما تقول يا سيد هوايتنغ فلك أن تظن ما تشاء. أنا لا أنكر ولا أعترف.

فهزّ رأسه وهو يتأملها بنظرة شاردة ثم قال: إذن فلننتقل إلى السؤال التقليدي. كم تريدين؟

فحارت كواتسو كيف تجيب! تحديد المبلغ سيكشف خدعتها، فيجب أن تتخلص من الرد فقالت: يمكنك الآن أن تقدم إليّ مبلغاً تحت الحساب، وفيما بعد نتحدث عن المبلغ المطلوب.

فقال: هذا هو الابتزاز بعينه.

- لا، بل هو مجرّد عربون أو سُلفة، أو سمّه ما تشاء. مبلغ تحت حساب خدماتي المستقبَلية.

فزمجر السيد هوايتنغ ثم أردف باسماً: أجل، أنا واثق أن في وسعك أن تُسدي إليّ خدمات رائعة.

فقالت: الدنيا حافلة بالمفاجآت.

- صدقتِ، أنا واثق من أن هناك شخصاً ما تكلم وأفلت لسانه، وأنت تقولين إن هذا الشخص ليس هو ريتا، ولذلك...

قطع عليه الحديث نقرات خفيفة على باب الغرفة، ثم دخل الكاتب الكهل الذي استقبل كواتسو عند حضورها وقدّم ورقة مطويّة إلى السيد هوايتنغ وهو يقول: رسالة هاتفية لك يا سيدي.

فقرأ هوايتنغ الورقة قراءة سريعة ثم قطّب جبينه وقال: شكراً لك، يمكنك الآن أن تنصرف فلست في حاجة إليك.

وعندما أغلق الكاتب الباب وراءه التفت هوايتنغ إلى كواتسو وقال لها: عودي غداً في الساعة الحادية عشرة لنعاود حديثنا. والآن إليك هذه الخمسين جنيهاً تحت حساب خدماتك المستقبلية كما قلتِ.

فبادرت إلى الانصراف وهي تقول: طاب يومك يا سيد هوايتنغ، وإلى اللقاء غداً.

* * *

الآن ستذهب إلى لقاء تومي عند محطة مترو بيكاديللي وتذهله بهذه المفاجأة العجيبة، هذه الثروة التي في حقيبتها. مشت في اتجاه المترو، ولكنها ما لبثت أن قالت في نفسها:

كيف أركب المترو وقد أصبحت ثرية؟

وهبطت كواتسو من سيارة الأجر في زهو وخيلاء، وكان تومي على الرصيف في انتظارها فحملق إليها مشدوها وهو يسائل نفسه: كيف تركب هذه المجنونة سيارة أجرة؟ من أين لها الأجر وهي تكاد تتضور جوعاً؟!

فأقبلت عليه كواتسو وقالت له بشموخ واستعلاء: تومي، ادفع أجر السيارة فليس معي إلا أوراق من فئة الخمسة جنيهات.

* * *

الفصل الثالث

أخذ تومي ينبش جيوبه حتى اجتمعت له تسعة شلنات، ومع ذلك كان لا يزال في حاجة إلى سبعة بنسات، فقال لها: أمعك قطع نقود صغيرة؟

وبدورها فتّشت جيوبها وأكملت الأجر، فقال لها: بالله عليك ما الذي جعلك تركبين سيارة أجرة؟

فأجابت: خشيتُ أن أصِل إلى موعدنا متأخرة فيضايقك الانتظار.

- الذي يضايقني هو أن أفرغ كل ما في جيبي أجراً لسيارة الأجرة.

- هوّن عليك يا شريكي؛ فحقيبتي عامرة بخمسين جنيهاً، ولكنها من فئة الخمسة جنيهات بكل أسف.

فقال: ألا تكُفين عن هذه المهزلة؟

- يا إلهي! ألا تصدقني؟ ما أعجب الدنيا! أنا حين أكذبُ يصدقونني وإن صدقتُ كذبوني.

ثم أردفت: أكاد أموت جوعاً، فهل تحب أن نتناول الغداء

في السافوي؟

فقال هادئاً: ولماذا لا نتناوله في الريتز فهو أفخم؟ على أي حال أنا أفضّل أن نتناول طعامنا في مطعمنا المتواضع المألوف في بيكاديللي. هيا بنا.

وعادا يتابعان طريقهما صامتَين، وفجأة قال بلطف: كواتسو... ألا ترين أنه يجب أن تذهبي إلى طبيب نفسي؟

فتساءلت: وما السبب؟

- أراك مضطربة الأعصاب تتخيلين أشياء لا وجود لها، وإلا فما هي حكاية هذه الخمسين جنيهاً؟

فقالت: معك حق. لقد كسبتُ ثروة فاختبل عقلي، والعلاجِ الوحيد هو أن آكل ما اعتاد الأغنياء أن يأكلوه، هيا، هيا. تعالَ بنا نأكل كل هذا.

قال لها تومي بإشفاق ورثاء: كواتسو، عزيزتي! هل جننتِ؟

- وكيف لا أجنّ ومعي كل هذا؟

ثم فتحت حقيبتها فأبرزت رزمة الأوراق النقدية وهي تهتف به: انظر، انظر؛ كل هذا ملك لي!

فقال متسائلاً بدهشة واستغراب: ما هذا؟!

- ثروة كسبتها.

- هل سطَوتِ على أحد البنوك؟

- بل سطوتُ على أحد المغفلين.

وفي المطعم وعلى مائدة المشهّيات والدجاج واللحوم أخذت كواتسو تسرد قصتها فقالت: والشيء الذي ما زلتُ أعجب له هو أنني اخترعت اسم جين فين، فكان لهذا الاسم الذي اخترعته ذلك التأثير العجيب عليه.

فقال لها تومي: ولكنكِ لم تخترعي هذا الاسم؛ فأنا الذي ذكرتُه لك فاستقرّ في ذهنك.

- أنتَ الذي ذكرته لي؟ ومتى كان ذلك؟

- بالأمس، عندما كنا في المقهى ننتظر أن تخلو إحدى الموائد. ألم أقل لكِ إنني سمعت رجلين يتحدثان عن فتاة تُدعى جين فين، وقلتُ لك إنه اسم عجيب مضحك؟

فقالت: آه، صدقت... الآن تذكرت ذلك.

- لقد وعاه عقلك الباطن فجرى به لسانك.

وتريثت كواتسو برهة مفكرة ثم قالت: تومي، صِفْ لي الرجلين اللذين كانا يتحدثان عن تلك الفتاة جين فين.

وما إن أدلى إليها بأوصاف أول الرجلين حتى هتفت: هذا هو هوايتنغ بعينه، يا لها من مصادفة عجيبة!

- أما الثاني فلا أذكر أوصافه جيداً إذ كان مولياً ظهره إلى ناحيتي.

ثم أردف: لكن كيف يمكنك أن تواصلي تمثيل دورك؟ خدعتك لن تلبث أن تنكشف وستورطين نفسك في تهمة ابتزاز

بالتهديد.

- ابتزاز؟ ولكنني لم أبتزّ منه شيئاً ولم أعده بشيء، كما أنني لم أقل شيئاً لأنني لا أعرف أي شيء. لقد أراد أن يشتري ما لديّ من معلومات فنقدني مبلغاً على الحساب، هذا هو كل ما هنالك.

- الأمر أكثر تعقيداً مما تتصورين. غداً ستقابلين هوايتنغ، وعندئذ سيطالبك بأن تُدلي إليه بما لديك من معلومات. وطبعاً لن يكون لديك ما تُدلين به لأنك لا تعرفين شيئاً، فكيف يكون موقفك؟

عقدت كواتسو ما بين حاجبيها ثم قالت: الحق أن هذه المشكلة لم تخطر لي ببال. مر لنا بقدحين من القهوة السادة. لقد كان أبي يردد دائماً أن القهوة تعين على التفكير.

جيء لهما بالقهوة ومضيا يحتسيانها صامتَين غارقين في التفكير، وأخيراً هتفت كواتسو: اسمع يا تومي، يجب أن نجمع مزيداً من المعلومات عن هذا الموضوع حتى يتسنى لنا أن نتصرف التصرف السليم.

فقال تومي متسائلاً: وكيف السبيل إلى هذا؟

- هوايتنغ هو نقطة البداية، فيجب أن نعرف أين يقيم وما مهنته الحقيقية ومَن أصدقاؤه وأين يقضي سهراته... باختصار يجب أن نتجسس عليه، ومن الواضح أنني لن أستطيع أن أقوم بهذا لأنه يعرفني، إذن عليك أنت أن تتولى هذه المهمة فهو لا يعلم عنك شيئاً، لأنني حين ذكرتُ له أنك كنت جالساً معي في مقهى الشاي قال إنه لم يُلقِ إليك بالاً.

سألها تومي: ولكن ما الذي تريدينه مني؟

فأجابت: هذه هي خطتي. غدا سأذهب لمقابلة هوايتنغ في الحادية عشرة، ولن يطول حديثي معه، وعند خروجي سأتوارى في أيّ ركن قريب من المبنى، فإذا ما رأيتُه يغادر البيت أسقطتُ منديلي على الأرض لتتعرف عليه وتقوم بتعقب خطواته، فما رأيك؟

فأجاب: موافق طبعاً.

* * *

في صباح اليوم التالي انطلق الشريكان إلى مقر شركة أستونيا للاستيراد، فوقف تومي على الرصيف في حين دخلت كواتسو إلى المبنى، ولم تلبث كواتسو في المبنى إلا دقائق معدودات، ثم ارتدّت راجعة وقالت لصاحبها: تومي، المكتب مغلق ولا أحد يرد عليّ.

- هذا غريب! فلنحاول مرة أخرى.

ثم دخلا إلى المبنى معاً فدقّا الجرس، وعلا رنينه متواصلاً ولكن بلا فائدة، فخرج إليهما موظّف في أحد المكاتب المجاورة وقال لهما: المكتب مغلق منذ ظهر أمس، وأعتقد أن الشركة انتقلت إلى مكان آخَر لأن الشقة معروضة للإيجار.

فسألته كواتسو: هل تعرف العنوان الجديد؟

- آسف يا آنسة، فهم لم يتركوا عنواناً.

وللمرة الثانية كانا في الطريق واجمَين مكتئبين وقد لاذا

بالصمت. ثم قال لها تومي: هوّني عليك يا صديقتي، وحسبك الخمسين جنيها التي استوليتِ عليها.

فرفعت إليه عينيها وقد بدا فيهما وميض التحدي ثم قالت: إذا كنت تظن أن تلك هي النهاية فأنت مخطئ، إنها البداية وسوف ترى.

- بداية ماذا؟

- بداية المغامرات.

ثم أردفت: ما الذي جعلهم يسارعون إلى الهرب؟ لا شك أن حكاية جين فين هذه تنطوي على سر خطير، ولذلك أدركهم الفزع فهربوا. يجب أن نعرف مَن هي جين فين وما حكايتها؟

تساءل تومي بتهكم: وكيف السبيل إلى هذا؟

- سوف ترى. ناولني ورقة وقلماً.

ناولها الورق والقلم فأخذت تخط بضعة سطور، ثم دفعت إليه بالقصاصة وهي تقول: انشر هذا الإعلان حالاً «أريد معلومات عن جين فين. انشر الرد في نفس الصحيفة».

* * *

الفصل الرابع

في اليوم التالي لظهور الإعلان في صحيفة التايمز جلست كواتسو على أريكة وثيرة في المتحف تنتظر تومي راجعاً من إدارة الصحيفة حاملاً إليها الردود، وأخيراً جاء تومي يحمل إليها خطابين فضّت أولهما وكان هذا نصه: سيدي، رداً على الإعلان المنشور في صحيفة التايمز بتاريخ اليوم أعتقد أنه في وسعي أن أكون ذا نفع لك، فهل تتفضل بزيارتي غداً في الحادية عشرة في العنوان المبين بذيل هذا الخطاب؟ أ. كارتر.

قال تومي معقباً: الخطة التي تدور في رأسي هي هذه. سنذهب معاً لمقابلة أ. كارتر فيحمرّ وجهه غضباً ويصيح بي: "كم تطلب؟" كما فعل صاحبنا هوايتنغ معكِ من قبل، فأجيبه: "خمسون جنيهاً"، فإذا ناولها لي وضعتُها في جيبي، ثم نهرع بعدها إلى صاحب الرسالة الثانية ونفوز بخمسين جنيهاً أخرى، فما رأيك؟

فقالت كواتسو: دعك من المزاح وهيا فضّ الخطاب الثاني.

وكان هذا نص الخطاب الثاني: سيدي العزيز، رداً على

إعلانكم أرجوك أن تحضر لزيارتي غداً نحو الظهر. جوليوس هيرشايمر.

قال تومي: سنذهب إليه عند الظهر، وهذه ساعة محظوظة فقد يدعونا إلى مشاطرته الغداء.

قالت كواتسو: والآن هيا بنا إلى صاحبنا كارتر فقد حان موعده.

* * *

تأمل كارتر ضيفيه برهة بنظراته النفّاذة وعلى شفتيه ابتسامة جذابة دون أن يتفوه بكلمة واحدة، فتململت كواتسو في جلستها ثم قالت: هل لك أن تتفضل بأن تذكر لنا ما تعرفه عن جين فين؟

فقال كارتر: أليس من الأَولى أن تخبراني بما تعرفانه عن جين فين؟

فقالت كواتسو بنبرة من الانفعال: لم نأتِ من أجل هذا سيدي، لقد حضرنا لنسمع منك أنت ما لديك.

فازدادت ابتسامة الرجل اتساعاً ثم قال: أهذا هو ما تظنينه يا آنسة؟ دعيني إذن أؤكد لك أن الأمر على العكس من ذلك. ما الذي تعرفانه عن جين فين؟

فظلت كواتسو صامتة لا تجيب فقال ربّ الدار: نشركما هذا الإعلان معناه أنكِ تعرفين شيئاً عن جين فين، فهيّا هاتي ما عندك.

وشعرت كواتسو أن عيني الرجل تشعان مغناطيسية أدارت رأسها، فأشاحت عنه ملتفتة إلى تومي قائلة: ليس لدينا طبعاً يا تومي ما نقوله، أليس كذلك؟

وقد أدهشها تحوّل تومي إلى السيد كارتر قائلاً: القليل الذي نعرفه ليس بذي فائدة فيما يبدو لي، ولكن إذا أردتَ أن تعرفه فلن أبخل به.

فهتفت به كواتسو محذرة: تومي، لا تتكلم، لا تقل شيئاً.

فاستطرد تومي: لقد عرفتُك على الفور منذ وقع بصري عليك يا سيدي، فقد سبق أن رأيتُك تدخل إدارة المخابرات يوماً ما عندما كنت أزور أبي في مقر عمله بالوزارة.

فابتسم رب الدار وقال: أنا هنا لست إلا السيد كارتر فأرجوك أن لا تذكر اسمي، وهذا البيت هو مسكن ابنة عمي وهي تُعيره لي من آن لآخَر لألتقي فيه ببعض الناس بعيداً عن نطاق العمل الرسمي. والآن هل لكما أن تقصّا عليّ حكاية جين فين؟

وعلى مهل وبتؤدة أخذَت كواتسو تروي القصة، وكان السيد كارتر ينصت إليها بانتباه شديد. وعندما فرغت من روايتها رمقها بابتسامته المغناطيسية الجذابة ثم قال: إذن فأنتما شابّان جَسوران تنشدان المغامرة. حسناً، ما رأيكما في أن تعملا تحت إشرافي وبتوجيهي؟ سأنقدكما أجراً مناسباً وأتكفل بجميع النفقات، فهل توافقان؟

تألّق وجه كواتسو اغتباطاً وتساءلت: ولكن من تكون جين

فين هذه؟ نحن لا نعرف عنها شيئاً.

فتأملها كارتر هنيهة ثم قال: لكما الحق في أن تعرفا عنها كل شيء.

ثم قال: منذ بضعة أعوام وفي أثناء أزمة سياسية خطيرة عُقدت معاهدة سرية بين أمريكا وإنكلترا وتم التوقيع عليها في الولايات المتحدة، ثم عُهد بهذه المعاهدة السرية إلى رجل يُدعى دانفيرس ليذهب بها إلى إنكلترا لتسليمها إلى وزارة الخارجية، وقد استقلّ دانفيرس الباخرة «الباسيفيك» ومعه المعاهدة ملفوفة في قطعة من القماش مختومة بالشمع الأحمر ومخبأة تحت قميصه، فهبّت لسوء الحظ عاصفة عاتية أغرقت السفينة الباسيفيك، وكان دانفيرس من بين الغرقى وعُثر على جثته بين الحطام، ولكن اللفافة السرية كانت قد اختفت.

تريّث كارتر هنيهة ثم تابع الحديث: هل استولى شخص مجهول على الوثيقة؟ هناك بعض دلائل قد توحي بشيء، وقد لا تنطوي على شيء على الإطلاق. فحين أُدليَت قوارب النجاة إلى الماء تحدّث دانفيرس برهة إلى فتاة أمريكية على غير سابق معرفة، فهل عهد إليها باللفافة الغامضة خفية؟ لا يستطيع أحد أن يؤكد هذا أو ينفيه، أما من ناحيتي أنا فأغلّب الظن أن دانفيرس سلّم المعاهدة إلى تلك المرأة وهو يرجو أن تُكتَب لها النجاة، لأن النساء ينزلن إلى القوارب مع الأطفال قبل الرجال دائماً.

ومضى كارتر يستكمل الحديث قائلاً: فإذا كان الأمر كذلك فما مصير هذه الفتاة الأمريكية؟ وما الذي فعلته بالوثيقة؟ لقد عرفنا فيما بعد أن دانفيرس كان طَوال الطريق متبوعاً بالجواسيس

وكانوا لا يغفلون عنه لحظة، فهل كانت الفتاة هي الأخرى منتمية إلى المعسكر المضاد؟ هل اقتفى الجواسيس أثرها فانتزعوا منها الوثيقة الخطيرة؟ لقد بذلنا أقصى جهدنا للعثور على أثرها ولكن على غير جدوى، وكان كل ما عرفناه عنها أنها تُدعى جين فين وأنها كانت من بين الناجين من فاجعة الباسيفيك، وهي يتيمة الأبوين أمضت سنواتها الأخيرة في إحدى الكليات ثم احترفت مهنة التدريس وبعد ذلك حصلت على وظيفة في إحدى المدارس الداخلية في باريس عن طريق المراسلة، ثم استخرجت جواز سفر وحجزت لنفسها مكاناً في الباخرة الباسيفيك.

ثم نظر إليهما لحظة وقال: تلك هي قصة جين فين، فبمجرّد أن وضعَت قدمها على أرض إنكلترا اختفت وتلاشت وكأنها سحابة من الدخان، أما المعاهدة السرية فلم يظهر لها أثر مع أننا كنا نتوقع أن تُستخدَم ضد إنكلترا. ومن المحتمل أن تكون وثيقة المعاهدة قد فُقدت مع السفينة الغارقة، أما إذا كانت لا تزال موجودة فظهورها ينطوي على خطر كبير يمسّ إنكلترا، بل قد يؤدي إلى قيام حرب عالمية جديدة.

تريّث السيد كارتر هنيهة ثم قال: وفي هذه البلاد رجل إنكليزي ما زلنا نجهل اسمه الحقيقي يعمل مع الشيوعيين والفاشستيين لحسابه الشخصي متوارياً في الظل، فكل إضراب يقوم في إنكلترا وكل شغَب يثور لا بد أن تجد هذا الإنكليزي المجهول هو محركه والموحي به. ومما يؤسَف له أننا لا نعرف عن هذا العدو الخفي إلا الاسم المستعار الذي ينتحله وهو السيد براون، كما أننا لا نعرف هدفه الحقيقي، غير أنه من المرجح أنه يريد الاستحواذ على السلطة وأن يصبح دكتاتوراً يجمع في يده

زمام البلاد، أضف إلى ذلك أن أعوانه وشركاءه يتلقون أوامره بطريقة سرية غامضة. وفي كل مرة نعتقد فيها أننا اهتدينا إلى آثاره إذا به يفلت من أيدينا ويختفي في الظل، ثم يتبين لنا بعد أن ينتهي الأمر أن السيد براون لم يكن إلا ذلك الرجل الذي التقينا به فلم نحفل بأمره إذ لم يكن أكثر من موظّف صغير، أو خادم حقير، أو سكرتير تافه الشأن تتخطاه الأبصار.

هتفت كواتسو: يا إلهي! أتقول إنه يُدعى براون؟ أنا أذكر أن الكاتب الذي استقبلني عند زيارتي للسيد هوايتنغ كان يدعى السيد براون، ألا يجوز أن يكون هو نفس الرجل الغامض الخفي؟

- هذا محتمَل، فهلاّ وصفتِه لي؟

تريثت كواتسو لحظة مفكّرةً ثم أجابت: إنه مجرّد شخص عادي يشبه أيّ إنسان. لقد دخل على السيد هوايتنغ في أثناء حديثنا وأعطاه رسالة هاتفية، فما كان منه إلا أن بتر حديثه معي ونقدني الخمسين جنيهاً.

- لا بد أن السيد براون كان يتسمع إلى حديثكما، وهو الذي أمر هوايتنغ بأن يقطع الحديث وأن يحثك على التعجيل بالانصراف.

وبعد صمت قصير قال السيد كارتر: يجب ألاّ أكتم عنكما أنكما بقبول هذه المهمة ستكونان هدفاً لخطر جسيم؛ فالسيد براون رجل خطير لا يتورع حتى عن القتل لتحقيق أهدافه.

قالت كواتسو بحماسة: لقد قبلنا المهمة ولن نتراجع.

فقال كارتر: يجب أن تعثري على الوثيقة السرية. هل فُقدت في البحر؟ هل وقعت في يد شخص ما؟

فتساءل تومي: إذا كانت وقعت في يد شخص مجهول فلماذا لم يستخدمها حتى الآن؟

- لأنها مكتوبة بالشفرة، ولعله لم يفلح في حلّ رموزها حتى الآن.

ثم أردف: وثمة شيء آخر؛ من المحتمل أن تكون جين فين قد ماتت منذ زمن طويل، ولعلّ السيد هوايتنغ أراد أن يضللنا عن الحقيقة فدعاك إلى مقابلته ليطلب منك أن تنتحلي اسم جين فين وأن تنزلي في نُزل السيدة كولومبا في باريس، وبعد ذلك يرشدنا إلى مكانك لنطمئن إليك ونحسبك جين فين الحقيقية فنطلعك على ما لدينا من معلومات.

- يا لها من خطة عجيبة!

فقال السيد كارتر: ألم أقل لكِ إن السيد براون رجل عبقري مفرط في الذكاء؟

* * *

الفصل الخامس

قال تومي برسفورد موجهاً الحديث إلى السيد كارتر: هل لديك تعليمات معينة تصدرها إلينا يا سيدي؟

فهز كارتر رأسه نفياً ثم قال: أخشى أن لا يكون لدي شيء. لقد فشل رجالي بأساليبهم التقليدية في تحرياتهم ولم يصلوا إلى شيء. أنا لا أريد أن أثبط همتكما ولكن يجب أن أصارحكما بأن مهمتكما عويصة معقدة وأن الموقف خطير، فالعمال يهددون بالقيام بإضراب شامل والذي أخشاه هو أن تستخدم الأيدي التي تحركهم المعاهدة السرية سلاحاً للتهديد حتى يرغموا الحكومة على القيام بتنازلات جسيمة، فقد لوّحوا بأن المعاهدة تحت أيديهم وتوعدوا بنشرها، وإن كانت الحكومة تعتقد أن ذلك الادعاء مجرّد خدعة من جانبهم.

نهضت كواتسو واقفة تريد الانصراف ثم قالت: هل لي أن أسألك إلى أيّ مدى نستطيع أن نعتمد عليك يا سيد كارتر؟

فأجاب: سأمدّكما بكل ما يصل إليّ من معلومات، كما أنني سأدفع لكما أجراً طيباً معقولاً. ولكن يجب ألاّ يغيب عنكما أنكما تعملان معي بصفة غير رسمية، فإذا تورطتما في مشكلة

مع الشرطة فلن يتسنى لي أن أسرع إلى نجدتكما، لذا يجب أن يكون واضحاً لكما من الآن أنكما تعملان لحسابكما الشخصي وأنه لا شأن لي بكما من الوجهة الرسمية.

فعادت كواتسو تسأل: وماذا بشأن الأجر الذي نتقاضاه؟

- إذا احتجتما مالاً لنفقاتكما فاتصلا بي على هذا العنوان فيصلكما المال على الفور، أما الأجر فهو ستمئة جنيه في العام ومثلها للسيد برسفورد.

فقالت كواتسو باسمة: شكراً لك يا سيدي، فأنا امرأة أحب المال كثيراً.

- حسناً. والآن إلى اللقاء، وأرجو لكما حظاً سعيداً موفقاً.

* * *

قال لها تومي وهما في الطريق: لقد صدقَت نبوءتك حين قلت أن ما حدث كان بداية لمغامرات لا نهاية لها. والآن هيا بنا نتناول الغداء فقد كدتُ أموت جوعاً.

فهتفت به كواتسو: هل نسيتَ موعدنا مع السيد جوليوس هيرشايمر؟

- آه! لقد كدت أنساه حقاً.

وما هي إلا دقائق حتى كانا في فندق ريتز يسألان عن الجناح الذي ينزل فيه السيد جوليوس هيرشايمر، وقد تلقاهما الرجل بابتسامة لطيفة وابتدرهما بهذا السؤال: تُرى ما الذي

تعرفانه عن ابنة عمتي؟

- ابنة عمتك؟!

- نعم، جين فين هي ابنة عمتي.

- إذن لا شك أنك تعرف مكانها؟

- هذا هو الشيء الذي أجهله بكل أسف.

ثم ضرب المنضدة بقبضة يده وهو يقول: هذا هو ما يثير غضبي، فهل تعرفان أنتما مكانها؟

فقالت كواتسو بنبرة من التحدي: ألم تقرأ الإعلان يا سيد شايمر؟ لقد قلنا إننا نريد معلومات لا العكس.

فقال ساخراً: ثقي أنني أجيد القراءة، ولكني أريد أن أعرف شيئاً عن ماضيها وأين هي الآن؟

فقالت كواتسو: ونحن أيضاً نريد أن نعرف ماضيها.

فقال السيد هيرشايمر وهو يتأمل كواتسو بنظرة فاحصة: أرجو أن تصارحيني بالحقيقة؛ هل أنتما من أعضاء العصابات؟ هل في نيتكما أن تطالباني بفدية عنها مثل...؟ اسمعي يا فتاتي. نحن في إنكلترا وهذه البلاد ليست مسرحاً لعصابات الاختطاف. أم لعلك تريدين أن أستدعي ذلك الشرطي الذي يتمشّى على الرصيف؟

فبادر تومي إلى التدخل في الحديث بقوله: نحن لم نختطف ابنة عمتك، بل على العكس نحن نسعى إلى العثور عليها، فقد نُقدنا أجراً كي نبحث عنها.

ومضى تومي يروي له قصة موجزة عن اختفاء جين فين وأن من المحتمَل أنها متورطة في مشكلة سياسية وأنهما مكلّفان بالبحث عنها باعتبارها من المخبرين الخصوصيين، ولهذا فهما في حاجة إلى شيء من المعلومات كي يشرعا في أداء مهمتهما.

فتريث السيد هيرشايمر برهة متأملاً ثم قال: فليكن. وجّها إليّ ما شئتما من أسئلة فسوف أجيب.

وأدهشتهما هذه الاستجابة السريعة التي أبداها، فسألته كواتسو: متى رأيتَ ابنة عمتك لآخر مرة؟

- أنا لم ألتقِ بها قط.

- ماذا تقول؟! لم تقابلها قط؟

- نعم، فقد كان أبي وأمها على خلاف دائم وبينهما قطيعة متصلة، فعندما قررت عمتي أن تتزوج آموس الذي يعمل مدرساً في قرية صغيرة هاج أبي غضباً وهددها بأنه لن يمنحها سنتاً واحداً، فما كان من عمتي إلا أن هجرت البيت وتزوجت مدرّسها، ولم نعد نسمع عنها شيئاً بعد ذلك.

ثم استطرد السيد شايمر: وقد وُفق أبي في أعماله التجارية كما كان يتوقع وأثرى ثراء فاحشاً وأصبح من أقطاب صناعة الصلب والنفط والسكك الحديدية، وقد مات وهو من رجال المال المعدودين في شارع وول ستريت، ثم ورثت عنه أمواله الطائلة. وأرجو أن تصدّقاني إذا قلتُ لكما إنني شعرت بالندم ووخز الضمير حين فكرت في عمتي الفقيرة المسكينة فعهدت إلى بعض المخبرين الخصوصيين بالبحث عنها، فأخبروني بأنها ماتت وأنها رُزقت بفتاة تُدعى جين فين وأن هذه الفتاة هاجرت

من الولايات المتحدة إلى باريس، ولكن الباخرة التي استقلتها غرقت في أثناء الرحلة، ولكن يبدو أنها كانت بين الناجين، وإن لم أهتد إلى أثرها حتى الآن. وقد لجأتُ إلى اسكتلنديارد وإلى إدارة الأمن العام في باريس ولكنهم كانوا يجهلون كل شيء عن جين فين، وقد زارني رجل الشرطة اليوم فأعطيته صورة لابنة عمتي تساعدهم في البحث عنها.

ثم نظر إليهما نظرة رجاء وتوسل وقال: أرجوكما أن تساعداني في البحث عن ابنة عمتي. وما دُمتما من المخبرين الخصوصيين فأنا أعهد إليكما بهذه المهمة. والآن هلاّ تناولتما الغداء معي حتى تتاح لنا فرصة أكبر للإفاضة في الحديث؟

هبطوا إلى مطعم الفندق، وبينما هم مقبلون على التهام السمك جاء النادل يحمل بطاقة إلى السيد هيرشايمر، فنظر المليونير الأمريكي إلى البطاقة وغمغم يقول: السيد جاب من اسكتلنديارد؟ هذا شرطي آخَر منهم يزعجني بزيارته ولكن بلا فائدة. أرجو أن لا يكونوا قد أضاعوا صورة جين فين التي أعطيتها لهم اليوم فهي الصورة الوحيدة التي لديّ ولا يمكن استخراج نسخة أخرى منها، فقد احترق الاستوديو الذي قام بالتقاطها وأتت النيران على كل شيء فيه، وقد زودتني بها إدارة الكلية التي تلقت فيها جين فين دراستها.

وفجأة استبدّ بكواتسو هاجس مزعج فسألته: هل سبق لك أن التقيت في اسكتلنديارد بالشرطي الذي زارك صباح اليوم وأخذ الصورة؟

فهز رأسه نفياً وقال: لا. أنا لم أقابله إلا صباح اليوم.

- وهل تعرف اسمه؟

- اسمه؟ لا، لا أذكره. ولكن ها هي ذي بطاقته معي.

ثم وضع يده في جيبه فأخرج البطاقة وقدمها إليها، فنظرت كواتسو في البطاقة وقرأت الاسم المكتوب عليها. لقد كان الشرطي المزعوم يُدعى السيد براون.

* * *

الفصل السادس

ليست بنا حاجة إلى القول بأن السيد براون لم يكن معروفاً في دوائر اسكتلنديارد وأن الصورة الوحيدة لجين فين اختفت أيضاً، شأنها في ذلك شأن صاحبتها. وهكذا انتصر السيد براون مرة أخرى. وكان حادث ضياع الصورة ووقوع السيد شايمر في هذه الخدعة سبباً في توثيق الصلة بينه وبين المغامرَين الجسورين، فصارحته كواتسو بحقيقة المهمة الموكولة إليهما وأنهما ليسا من المخبرين الخصوصيين، وقد رأت كواتسو أن تتخذ من فندق ريتز مقراً لإقامتها وشريكها حتى يكونا على حد قولها على كثب من قريب جين فين الوحيد، خاصة أن النفقات على الدولة.

قالت كواتسو: لدينا آثار هامة يمكن أن نتخذ منها نقطة البداية، فنحن أولا نعرف هوايتنغ وقد التقينا به أما هم فلا يعرفونه ولم يقابلوه.

- أكبر الظن أننا لن نلقاه بعد ذلك مرة أخرى.

- وما يدريك؟ المصادفات تلعب دوراً خطيراً في الحياة، كما أن لدينا الأثر الثاني الذي يمكننا أن نتخذ منه نقطة الانطلاق، وهي ريتا.

فتساءل تومي: ومن تكون ريتا هذه؟

- هل نسيتَ أن السيد هوايتنغ أشار إلى اسمها عند مقابلتي له، فسألني عما إذا كانت هي التي أفشت إليّ بالسر؟

فقال ساخراً: لعلك تريدين أن تنشري إعلاناً تقولين فيه إننا نبحث عن ريتا العضو في إحدى عصابات النصب والاحتيال.

فلم تأبه كواتسو بسخريته ومضت تقول: اسمع، أنا أفكر تفكيراً منطقياً سليماً. لقد قال كارتر في حديثه معنا أن دانفيرس حامل المعاهدة السرية كان متبوعاً بالجواسيس وهو على ظهر الباخرة الباسيفيك، فلماذا لا تكون المرأة هي التي تعقبته؟

- هذا محتمل.

- بل هذا أمر مؤكد، وهذه المرأة الجاسوسة لا بد أن تكون هي ريتا، وإلا فمن أين لريتا أن تكون على علم بسر المعاهدة حتى تكاشفني به كما تبادر إلى ذهن السيد هوايتنغ؟ لا شك أن ريتا رأت الرسول دانفيرس وهو يسلم اللفافة السرية إلى جين فين.

فهتف تومي بإعجاب: كأني بك شارلوك هولمز في استنتاجاته الرائعة!

استطردت كواتسو: إذن علينا أن نفحص قائمة الركاب الذين نجوا من الغرق.

- وكيف يتسنى لنا الحصول عليها؟

- إنها معي، فقد ورد خطاب من السيد كارتر يتضمن بعض

البيانات وكانت هذه القائمة من بينها.

- وهل ورد فيها اسم ريتا؟

- لا أدري؛ فأسماء النساء جميعاً قاصرة على لقب الأسرة دون الاسم الأول.

- وهذا ما يسد أمامنا الطريق.

- إذن علينا أن نسعى إلى معرفة الاسم الأول لكل واحدة منهن وخاصة المقيمات منهن في لندن، فهيا دوّن العناوين ريثما أرتدي ثيابي.

وما هي إلا خمس دقائق حتى كانا أمام باب أول اسم في القائمة، السيدة إدجار كيث المقيمة في طريق جيلندور رقم ٧، وقبل أن تهم كواتسو بدق الجرس سألها تومي: ماذا ستقولين لها؟

- الحق أنني لست أدري، فأنا لم أفكر في هذا من قبل.

- إذن دعي الأمر لي.

تنحت كواتسو عن الباب وراح تومي يضغط الجرس، فأسرعت إليه خادمة منفوشة الشعر فسألها بعد أن حياها: أنا مندوب البلدية من قسم مراجعة أسماء الناخبين. هل هذا بيت السيد إدجار كيث؟

فأجابت الخادمة بنعم فسألها: وما الاسم الأول للسيدة زوجته؟

فأجابت: ألينور جين.

- وهل لها أولاد أو بنات بالغين؟

- لا يا سيدي.

فشكرها تومي ورجع إلى شريكته قائلاً: أرأيت كيف أحسنتُ التصرف؟ مجرّد لعبة أطفال.

فقالت: في هذه المرة يجب أن أعترف أنك انتصرت عليّ.

واستخدما نفس الخدعة عدة مرات ولكن دون أن يجدا من تُدعى ريتا، فقالت كواتسو: الساعات تمر والفشل يلاحقنا وقد بدأ اليأس يداهمني.

- الذي أخشاه أن يبرز إلينا السيد براون من أحشاء الظلام فيغمد خنجره في ظهورنا.

فقالت كواتسو ضاحكة: في هذه الحالة سنموت شهيدين ويخلد اسمانا في سجل التاريخ.

انتهيا أخيراً إلى عمارة أودلي بالقرب من حديقة لين، ودق تومي الجرس منتحلاً للمرة العاشرة وظيفة مندوب البلدية من قسم مراجعة أسماء الناخبين، وأجابت الخادمة العجوز التي فتحت الباب على سؤاله بقولها: الاسم الأول للسيدة هو مرغريت.

وهمّ تومي بأن يشكرها ويستدير منصرفاً، ولكن فكرة جريئة انبثقت إلى ذهنه فلم يتردد في أن يقول: إن الاسم المدون في سجل الناخبين هو ريتا.

فأجابت المرأة العجوز: تماماً يا سيدي.

- شكراً لكِ يا سيدتي. طاب مساؤك.

هبط تومي الدرج إلى كواتسو وهو يكاد يطير فرحاً فأفضى إليها بما اكتشف، ثم لمحت كواتسو رجلين ينزلان الدرَج، فجذبت تومي من ذراعه واختفت وراء أحد الأعمدة وهمست في أذنه قائلة: الرجل الضخم هم هوايتنغ فهيا اتبعه ولا تدعه يغيب عن بصرك لحظة.

* * *

الفصل السابع

مشى هوايتنغ وصاحبه مسرعَين، وانطلق تومي في أثرهما يتعقب خطواتهما، ثم انتهت بهم المسيرة إلى شارع أكسفورد فجدّ تومي في خطاه واقترب منهما مطمئناً إلى أنهما لن يفطنا إليه وهو مندسّ في غمرة الزحام، وتناهت إلى سمعه من حديثهما كلمات متناثرة غير مترابطة فسمعَهما يرددان كلمات «الشيوعية والحكومة والاضطرابات والفاشيست»، ولكنه عجز عن أن يتبين ما يقولان. ولم تطرق مسامعه إلا عبارة واحدة حين اتفق أن اشتد اقترابه منهما، فقد سمع هوايتنغ يقول: "أنت لا تعرف فلوزي يا عزيزي بوريس. إنها فتاة رائعة"، ولكنه لم يسمع الرد الذي أجاب به ذلك الذي يُدعى بوريس، وإن كان قد سمع هوايتنغ يقول: "مفهوم طبعاً، وإن كنا لن نلجأ إلى هذا إلا في حالة الضرورة فقط"، ثم توقفا على الرصيف يتحدثان، وبعد لحظات وصلت إلى أذنَي تومي كلمة واحدة تفوّه بها هوايتنغ إذ قال: السيد براون.

فضحك بوريس قائلاً: ولم لا يا صديقي؟ الحق أنني أتمنى أن ألتقي بالسيد براون هذا ولو لمرة واحدة.

- وما يدريك؟ لعلك قابلته دون أن تدري أنه هو.

- أتعلم أنه يُخيل إليّ في بعض الأحيان أنه اسم خرافي اخترعَته المنظمة لتضليل الشرطة، وفي أحيان أخرى أعلم عن يقين أنه شخص حقيقي موجود في وسطنا ولا يعرف شخصيته إلى نخبة من الخواص، فقد أكون أنا أو أيّ واحد فينا هو السيد براون، فلم يرَ أحد منا وجهه حتى اليوم.

لوح هوايتنغ بيده ليستوقف سيارة أجرة، فانطلق تومي في أعقاب الرجلين حتى انتهت به المطاردة إلى كشك التذاكر في محطة وترلو، فابتاع هوايتنغ تذكرة إلى بورنماوث، ففعل تومي ذلك، ثم سمع بوريس يقول له: ما زالت أمامك نصف ساعة.

وكان في تلك الكلمات ما أثار فكرة معينة في رأس تومي. من الواضح أن هوايتنغ هو وحده الذي سيسافر أما بوريس فسوف يبقى في لندن، فلا مناص أمامه من أن يتبع أحدهما دون الآخر، إذ يستحيل أن يقفو أثر الاثنين في وقت واحد. وعندما رأى تومي الرجلين يجلسان في مقهى المحطة يتناولان الشاي لم يضيّع دقيقة واحدة، بل هرع إلى مقصورة الهاتف فاتصل بفندق ريتز وطلب الاتصال بالسيد هيرشايمر وقال له: أنا برسفورد. أنا موجود الآن في محطة وترلو أقتفي خطوات هوايتنغ وصديق له، وهو سوف يسافر إلى بورنماوت بقطار الثالثة والنصف، فهل يمكن أن توافيني قبل هذا الموعد؟ أنا في حاجة إليك وسأشرح لك الأمر فيما بعد.

وكان الرد: لا تقلق، سأكون عندك حالاً.

ثم رجع تومي إلى المقهى، فوقف على مسافة منه يرقب الرجلين وهما يتناولان الشاي، وفجأة أحس بيد تلمس كتفه،

وحين استدار وجد نفسه وجهاً لوجه أمام هيرشايمر. وسأله الأمريكي: أين العصافير؟

- في مقهى الشاي، ذلك الرجل الضخم الجسم هو هوايتنغ فعليك أن تتعقبه، أما أنا فسأتبع زميله.

وبعد لحظات جاء القطار، فصعد إليه هوايتنغ وفي أعقابه هيرشايمر، أما تومي فتبع بوريس إلى خارج المحطة، وقد توجه الرجلان إلى حي سوهو ثم توقف بوريس أمام أحد البيوت وصعد الدرَج الخارجي، ثم طرق الباب بطريقة معينة يبدو أنها متفق عليها، ثم فتح الباب وتفوه بوريس بكلمة أو اثنتين فتنحى البواب عن مكانه وأدخله، ثم أُغلق الباب وراءه. وعندئذ فقد تومي صوابه وأقدم على أجرأ عمل يمكن أن يقدم عليه إنسان، فطرق الباب بنفس النقرات المتفق عليها، وتلقاه البواب ناظراً إليه وسأله عما يريد، وهنا أدرك أنه لا بد أن ينطق بنفس الكلمات التي نطق بها بوريس من قبل وإلا فلن يؤذن له بالدخول، فحار في أمره لا يدري ما عساها تكون هذه الكلمات، وبنوع من الاهتمام قال: السيد براون.

ولشد ما كانت دهشته حين تنحى البواب عن المدخل وهو يقول: الطابق الأول، الباب الثاني إلى اليسار.

* * *

الفصل الثامن

حين رأى تومي البواب يتنحى عن الباب لم يتردد في الدخول وقد طابت له المغامرة الجسورة. ومن وراء أحد الأبواب الواقعة إلى اليسار تناهت إلى سمعه همهمة أصوات خافتة، وسمع اسم السيد براون يتردد أكثر من مرة. ورأى في الممر ستاراً مُسدَلاً يحجب مدخلاً صغيراً في صدره باب يؤدي إلى غرفة أخرى.

ثم سمع باب البيت يُقرَع بالطريقة المعينة المتفق عليها فأدرك أن زائراً جديداً من أفراد العصابة قد حضر، فما كان منه إلا أن هرع إلى مخبئه يتوارى خلف الستائر، ومر القادم أمام المخبأ وطرق الباب الثاني إلى اليسار نفس الطرقات الخاصة التي قرع بها الباب الخارجي وإذا بالباب يفتح، فرأى منضدة كبيرة ينتظم حولها أربعة أو خمسة أشخاص يتصدرها رجل ذو لحية صغيرة مدببة يبدو أنه الرئيس.

قال الرئيس يسأل القادم الجديد وهو ما زال في مدخل القاعة. ما رقمك؟

فأجاب: ١٤.

- تماماً. ادخل.

فدخل الرجل وأوصد الباب وراءه، وعاد تومي إلى مكانه يسترق السمع من وراء الباب المغلق، ومن جديد جاءته الطرَقات على الباب الخارجي فارتدّ إلى موضعه الخفي، وتكرر نفس المشهد. وطال الوقت دون أن يطرأ جديد، ثم جاء زائر آخَر فاضطُر تومي إلى أن يبادر إلى المخبأ الخفي، وحين فتح له الباب وبدا الزائر في مدخل الغرفة نهض الرئيس واقفاً ثم قال: إنه لشرف عظيم أن تحضر اجتماعنا.

فأجاب الرجل: كانت هناك بعض الصعوبات، ولكنني رأيتُ أنه لا بد من حضوري لنتداول الرأي للمرة الأخيرة في مشروعاتنا، ويجب أن أعترف أنه لولا مؤازرة السيد براون لما تسنى لي أن أفعل شيئاً في هذه البلاد. هل هو موجود هنا؟

فأجابه الرئيس: لقد تلقينا رسالة منه يعتذر فيها عن الحضور.

فابتسم القادم الجديد ثم عقب بقوله: آه، لقد سمعتُ عن أساليبه، فهو يؤثر أن يعمل في الظل ولا يكشف عن شخصيته لأحد، ولعله الآن جالس بيننا ونحن لا ندري، وعلى أية حال فلنبدأ الاجتماع.

قال الرئيس: أرجو أن تجلس بجانبي يا رقم واحد.

وعندئذ لم يعد تومي يسمع شيئاً، فقد بادر أحدهم إلى إغلاق الباب، ومن جديد خرج تومي من مخبئه وألصق أذنه بالباب المغلق يرهف السمع، فلم تبلغ أذنيه إلا همهمة خافتة لم يتبين منها إلا كلمات متناثرة، ولم يتردد تومي حين قبض بيده

على المقبض وأخذ يديره في حركات بطيئة متمهلة إلى أقصى حد حتى لا يصدر منه صرير ينكشف به أمره، ثم حاول أن يدفع الباب فاستعصى عليه، فأدرك أنه مغلق من الداخل بالمفتاح أو بالمزلاج، ومن جديد أخذ يعيد المقبض إلى وضعه الأول.

ثم طرأت له فكرة أخرى، فمضى إلى الباب المحتجب وراء الستار وحرك مقبضه فدار في يده وفتح الباب، فإذا به في حجرة نوم، وكان من حسن حظه أن لحجرة النوم باباً متصلاً بغرفة الاجتماع، فاتجه إليه على أطراف أصابعه ثم حرك مقبضه إلى نهاية دورته ودفع الباب قليلاً فاستجاب له، وقد رأى وراء الباب ستاراً يحجب الرؤية ولكن لا يحول دون الاستماع، وجاء صوت ذو لكنة أيرلندية يقول: كل هذا عظيم، ولكننا في حاجة إلى المال.

ثم سمع تومي صوتاً آخر رجح لديه أنه صوت بوريس وكان يقول: إذا توافر المال كانت النتائج مضمونة.

وران السكون برهة على الحاضرين، ثم تكلم رقم واحد قائلاً: سيكون لديكم ما تبتغون من المال، أما القرض الذي تطلبه الصحيفة الإنكليزية فسيتولى بوريس أمره.

ثم سمع تومي صوت الرئيس قائلاً: لقد عهد إليّ السيد براون بأن أعرض عليكم تقارير النقابات وموقفها. إن نقابة عمال المناجم في حالة تأهب كامل.

ثم ساد الصمت من جديد، ولم يعد تومي يسمع إلا حفيف أوراق، وأخيراً ارتفع صوت رقم واحد قائلاً: وما التاريخ المحدد؟

فأجابه الرئيس: ٢٩ الجاري.

- أليس هذا الموعد مبكراً أكثر مما ينبغي؟

- ربما، ولكن الزعماء اليساريين هم الذين حددوه ولا يسعنا أن نعترض، فينبغي أن نشعرهم بأنهم أحرار فيما يرون. وليس من حق واحد أن يوجههم أو يسيطر عليهم، وهم فيما يفعلون لا يتحرون إلا مصلحتهم الخاصة، فهم قوم شرفاء ولكننا سنستغل غفلتهم.

قال رقم واحد: وبعد أن تستقر الأمور سيكون من السهل علينا أن نتخلص منهم.

قال الرئيس: ولكن علينا أن نتخلص من كليمس منذ الآن فقد أصبح يشك فينا، وسيتكفل رقم ١٤ بأمره.

ورد أحدهم وهو دون شك رقم ١٤: وهب أنني وقعت في أيدي الشرطة؟

- وما الذي تخشاه؟ إن أعظم محام في إنكلترا هو الذي سيتولى الدفاع عنك.

وتساءل رقم واحد قائلاً: هل نجاح الخطة مضمون؟

فأجاب الرئيس: مضمون تماماً.

ثم استطرد يقول: ومع ذلك فهنالك صعوبة واحدة، وهي أن اليمينيين من أعضاء النقابة (وهم الأغلبية) يرفضون أن يعلنوا الإضراب يوم ٢٩ إلا إذا كان الرأي العام يؤيدهم، فإن لم يتحقق هذا فهم يؤثرون التفاوض مع الحكومة وقبول بعض التنازلات.

فقال رقم واحد: ولكنني كنت أعتقد أن هناك وثيقة سرية يمكن أن تضمن النجاح.

فقال الرئيس: هذا صحيح، فنحن إذا سلمنا هذه الوثيقة إلى زعماء النقابة كانت النتيجة سريعة ومباشرة، فهم سينشرونها في طول البلاد وعرضها وسيترتب على إذاعتها قيام الثورة.

تساءل رقم واحد: وما الذي يقعدكم عن استخدامها؟

- الوثيقة نفسها، فهي ليست تحت يدنا.

- ولكنكم تعرفون مكانها طبعاً، أليس كذلك؟

- لا نعرف مكانها بكل أسف. شخص واحد هو الذي يعرف مكانها.

- ومن يكون هذا الشخص؟

فأرهف تومي أذنيه وركز انتباهه حتى لا يفوته الاسم، فأجاب الرئيس: امرأة.

فتساءل رقم واحد بغضب: ولمَ لم تجبروها على الكلام؟

- لقد أبت أن تتكلم.

- وأين هذه المرأة الآن؟

واشتد شوق تومي إلى سماع الجواب، بَيْدَ أنه لم يسمع بعد ذلك شيئاً، فقد تلقى على رأسه ضربة شديدة أفقدته الوعي فغاب في الظلام والنسيان.

* * *

الفصل التاسع

ما إن انطلق تومي في أعقاب هوايتنغ وصاحبه عند مغادرتهما بيت ريتا، أي مرغريت فانديمير، حتى انصرفت كواتسو بدورها ماضية إلى فندق ريتز، ولكنها ما إن سارت بضع خطوات حتى ارتدّت راجعة إلى بيت ريتا وقد استقر رأيها على أن تمضي في تحرياتها عن الفتاة بدلاً من أن تخلد إلى الكسل والتراخي في انتظار عودة تومي من مهمته، فعادت إلى المبنى مرة أخرى واتجهت مباشرة إلى عامل المصعد وفي نيتها أن تجاذبه أطراف الحديث علّها تخرج منه بشيء من المعلومات، ثم اقتربت منه وهمست في صوت خافت: أريد أن أسرّ إليك بكلمة يا ألبرت.

وفي حركة مسرحية كشفت عن ثنية كم البلوزة التي ترتديها وقالت: أتعرف هذه الشارة يا ألبرت؟

وكانت هذه الشارة هي شارة عضويتها في نادي قريتها التي هجرتها منذ سنوات طويلة، فحملق الفتى إلى الشارة، واستطردت كواتسو هامسة: أنا شرطية أمريكية.

وبسهولة غير منتظرة وقع ألبرت في الفخ المنصوب، ثم استطردت: أتريد أن تعمل مساعداً لي؟

فأحسّ بالفخر وطابت له المغامرة، فسوف يكون شرطياً سرياً، وغمغم: مساعداً لكِ؟ كم أتمنى أن أكون شرطياً سرياً!

فاستطردت كواتسو: أنا أقوم ببعض التحريات عن أحد سكان المنزل، ولا شك أنك كتوم يا ألبرت تحفظ السر وتصونه طبعاً. أنا أتحرى عن تلك المرأة فانديمير المقيمة في الطابق الثاني.

فتساءل: هل هي لصة؟

فأجابت: ويا لها من لصة! نحن في أمريكا نُطلق عليها لقب ريتا الحمراء.

فردّ ألبرت وقد اشتدت به الحماسة والانفعال: ريتا الحمراء! إذن فقد كانت آني على حق.

- ومن تكون آني هذه؟

قال: وصيفتها، ولكنها تنوي أن تترك العمل اليوم. ثم استطرد: كانت آني تقول دائما أنه لن يدهشها أبداً أن ترى الشرطة تقتحم المسكن وتقبض على تلك السيدة.

فقالت كواتسو: وهذا سوف يحدث في يوم من الأيام. ولكن بالمناسبة، هل تتحلى هذه السيدة بالزمرد والماس؟

فأجاب: نعم، نعم، لديها عقد من الزمرد الأخضر.

- هذا هو العقد الذي نبحث عنه. أتدري من أين سرقته؟ من المليونير ريسديل.

- ملك البترول في أمريكا؟ الصحف تردد اسمه كثيراً.

- هذا العقد يساوي مليون دولار.

- يا إلهي! إنه يساوي ثروة.

- لا بد من القيام ببعض التحريات والبحث عن الأدلة، ولكن إياك أن تفشي كلمة مما قلتُه لك.

فقال بحماسة: أقسم أنني سأكون كتوماً، أرجو أن تثقي بي.

- أنا أثق بك يا ألبرت ولذلك سأتخذ منك مساعداً لي.

سألها: وما الذي تريدينه مني؟

فتريثت كواتسو برهة مفكرة، ثم سألته: لماذا قررت وصيفتها آني أن تترك خدمتها؟

- لقد تشاجرت معها لأنها سيدة متعجرفة مستعلية.

ثم طرأت لكواتسو فكرة جريئة فقالت: اسمع يا ألبرت، هل يمكن أن تقول للسيدة أن لك ابنة عم أو صديقة مثلاً تعمل وصيفة وأنه يمكنك أن تلحقها بخدمتها، ثم تقدمني إليها بهذه الصفة؟

- هذا أمر سهل، يمكنك أن تعتمدي عليّ.

إذا نجحت الخطة فسوف أُجزل لك المكافأة، إذن ليكن موعدنا الحادية عشرة من صباح الغد.

وبعد ذلك رجعت كواتسو إلى الفندق وكتبت كلمة للسيد كارتر تبلغه فيها التطورات الجديدة، ثم أمضت ما تبقى من نهارها في الطواف بالمتاجر، واختتمت جولتها بالذهاب إلى

صالون للسيدات فطلبت منه أن يخفف حواجبها واشترت منه باروكة شقراء، ثم خططت حواجبها بطريقة تختلف عما كانت عليه من قبل ووضعت الباروكة الشقراء على رأسها فإذا بها امرأة أخرى تختلف عن كواتسو اختلافاً بيّناً.

وتأملت نفسها في المرآة ثم قالت لنفسها: لن يعرفني أحد وأنا على هذه الصورة. ثم خلعت الباروكة ووضعتها في حقيبتها وعادت إلى فندق ريتز وتناولت عشاءها وحدها، وقد أدهشها إلى حد ما عدم عودة تومي من مهمته، كما كان جوليوس هيرشايمر متغيباً عن الفندق أيضاً.

* * *

في صباح اليوم التالي حمل إليها البريد الرسالة التالية من السيد كارتر:

عزيزتي الآنسة كواتسو،

أهنئك على خطتك الجديدة، بيد أني أرى من واجبي أن أنبهك إلى المخاطرة التي ترمين إليها، فإذا رأيتِ أن تتنحي عن مهمتك فلا لوم عليك، أما إذا مضيت في تنفيذ خطتك فيمكنك أن تذكري للسيدة فانديمير أنك عملت وصيفة سنتين لدى السيدة دوفرين المقيمة في فيلا بارستوتاج في لانيلي، فقد دبرت الأمر معها. وأخيراً أتمنى لك حظاً سعيداً.

كارتر.

وما إن تجاوزت الساعة العاشرة بقليل حتى ارتدَت كواتسو تحت معطفها ثوباً قديماً كانت قد اشترته في اليوم السابق من

أحد متاجر الثياب المستعملة، ثم استقلت سيارة أجرة إلى محطة بادنجتون، وهناك دخلت إلى دورة المياه وأغلقت الباب على نفسها ثم أخفت شعرها الأسود تحت الباروكة الشقراء ورسمت حاجبها بالطريقة الجديدة، وخرجت وهي امرأة أخرى غير كواتسو التي عهدها الناس.

وفي تمام الحادية عشرة كانت كواتسو في عمارة أوديلي تتحدث إلى الفتى بتساؤل فقالت له: ألم تعرفني يا ألبرت؟ أنا ابنة عمك المزعومة.

فرمقها بدهشة واستغراب وهو يقول: الحق أنك فنانة رائعة تجيدين التنكر، فأنا لم أعرفك.

وحين سألَته عما فعل بشأنها أجاب: قلت للسيدة فانديمير إن لأحد أصدقائي أختاً تعمل وصيفة يمكنني أن ألحقها بخدمتها، وهي الآن في انتظارك، كما أنني طلبتُ من آني أن تستمر اليوم في العمل لحين حضورك.

وكانت آني الوصيفة المستقيلة هي التي فتحت لها الباب وقالت لها كواتسو: أنا الوصيفة الجديدة.

فزمّت آني شفتيها وقالت بامتعاض: هذه امرأة تشكّ في كل شيء. تصوري أنها تتهمني بأنني أتجسس عليها وأنني أقرأ خطاباتها بعد أن تحرقها وترميها في سلة المهملات.

وارتفع صوت جاف صارم النبرات يقول من الداخل: آني، مع من تتحدثين؟

- هذه هي الوصيفة الجديدة يا سيدتي.

- إذن أدخليها إليّ في الحال.

فحصتها ريتا بنظرة فاحصة وباستعلاء وأشارت إليها بالجلوس ثم سألتها: كيف عرفت أنني في حاجة إلى وصيفة؟

- أخي صديق لألبرت عامل المصعد وهو الذي أخبرني.

فتأملتها ريتا برهة ثم قالت: هذا غريب! لهجتك في الحديث تدل على أنك متعلمة ولستِ من طراز الوصيفات اللائي اعتدتُ على استخدامهن.

- أنا ممرضة يا سيدتي، وقد فُصلت من عملي بسبب الأزمة الاقتصادية مع عشراتٍ غيري من الممرضات، فعملت وصيفة لدى الآنسة دوفرين لمدة سنتين.

ثم أدلت إليها كواتسو ببيانات أخرى عن سابق خدمتها مما نفى الشكوك من رأس السيدة فانديمير وجعلها تطمئن إليها، ثم سألتها: ومتى يمكن أن تبدئي العمل؟

- الآن، في الحال يا سيدتي. ولكن يجب أن أذهب أولاً إلى محطة بادنجتون لآتي بحقيبتي من مخزن الأمانات.

- حسنا، ويمكنك أن تستقلي سيارة أجرة. ولكن ما اسمك؟

- برودانس كوبر يا سيدتي.

ثم انصرفت كواتسو وهي تكاد تطير فرحاً، فقد نجحت خطتها وها هي ذي في خضم المغامرات.

* * *

الفصل العاشر

عادت ريتا فانديمير من الخارج قبيل المساء فقالت لوصيفتها الجديدة: جهزي المائدة لاثنين، فقد دعوت ضيفاً لتناول العشاء.

وفي الثامنة دقّ الجرس فبادرت كواتسو إلى الباب لتستقبل الزائر، ولكنه لم يكن هوايتنغ كما تمنت بل رفيقه الذي لمحته معه بالأمس عندما كانت متوارية مع تومي تحت قبو الدرَج. وقدّم الزائر نفسَه إليها باسم إستيبانوف فأسرعت إليه ريتا مرحّبة به قائلة: مرحباً بك يا عزيزي بوريس إيفانوفيتش.

- شرف عظيم لي يا سيدتي أن أدعى إلى مائدتك.

ومضت كواتسو إلى المطبخ وسألت الطاهية: من يكون السيد إستيبانوف هذا؟ أيتردد على البيت كثيراً؟

- من حين لآخَر.

وحرصت كواتسو وهي تقدم إليهما صحاف الطعام على أن تنصت إلى ما يقولان علّها تسمع شيئاً عن تومي، فقد أثار قلقها إذ إنه لم يعد إلى الفندق ليلة الأمس ولم يبعث إليها بكلمة، ولكنهما طَوال العشاء لم يكونا يتحدثان إلا عن الأزياء

الحديثة والمسرحيات وما إلى ذلك، ثم انتقلا بعد العشاء إلى غرفة المعيشة فحملت إليها كواتسو أقداح القهوة، وحرصت وهي تغادر القاعة على أن تدع الباب مواربا عن فرجة صغيرة، فسمعت بوريس يقول: أهي الوصيفة الجديدة؟

- نعم، فقد كانت آني لا تُطاق.

وتوقفت كواتسو لدى الباب ترهف السمع فسمعت صوت بوريس يقول: هل تثقين بها؟

فضحكت ريتا وقالت: يا لكَ من رجل شكّاك يا بوريس. إنها قريبة الصلة بعامل المصعد أو أحد أصدقائه، ومع ذلك فلا نجد أحداً يرتاب في أن لي صلة بصاحبنا المشترك السيد براون.

فهتف بوريس محذراً: ريتا، كوني على حذر فإن الباب موارَب.

- أغلِقه إذن.

فهُرعت كواتسو لتبتعد عن الباب ومضت إلى المطبخ، ثم ما لبثت أن تسللت إلى البهو وقد رأت الطاهية غارقة في غسل الأطباق، بَيْدَ أن باب قاعة المعيشة كان مغلقاً، وأخيراً سمعت بوريس بصوت أكثر علواً: جرأتك ستوردنا موارد الهلاك يا ريتا.

فقالت: الدعابة الخفيفة كفيلة بأن تبعد عني الشبهات، وسوف ترى أن الأمر أقرب مما تتوقع.

ثم سألها: وحتى تحين الساعة، هل تسهرين في الخارج مع

بيل إدغارتون دائماً؟ أنت لا تجهلين أنه أنبغ محام في إنكلترا فحسب بل إنه من أعظم علماء الجريمة في هذا العصر أيضاً.

- لا تنسَ أيضاً أنه ببلاغته قد أنقذ العشرات من حبل المشنقة وأنني قد أحتاج إليه في يوم من الأيام.

فبدت نبرة حانقة في صوت بوريس وهو يقول: بل من الحكمة أن تُقلعي عن مصاحبته.

- هذا شأني الخاص، وليس لأحد أن يتدخل في اختيار أصدقائي.

فقال باقتضاب: سوف نرى، سوف نرى.

فردّت ريتا بأن قالت: اسمع يا بوريس، هناك شخص واحد فقط هو الذي له الحق في أن يأمرني، وهو السيد براون دون سواه.

- أنتِ امرأة من الصعب إقناعك. يقال عن بيل إدغارتون إن له أنفاً حساساً يتنسم رائحة الجريمة حيث تكون، ولا يقبل على أحد إلا إذا راودته بعض الشكوك في أمره. فما الذي يجعله يترامى عليك فجأة ويهتم بأمرك؟

فقاطعته ريتا: فليطمئن بالك يا بوريس، فإذا كان بيل إدغارتون ذكياً فأنا أذكى وأدهى.

ثم أردفت: ولا تنسَ أنه مفرط في ثرائه، وأنا امرأة يفتنني المال.

فقال بوريس إن جشعك إلى المال يعميك عن الأخطار

التي تحيط بكِ، فأنت تبيعين حياتك من أجل حفنة من المال. وتريث برهة ثم أردف بنبرة صارمة: أغلب ظني أنك لا تترددين في بيعنا من أجل المال.

فأغرقت ريتا في الضحك وقالت: في هذه الحالة سيكون الثمن باهظاً.

- إذن فأنت تعترفين؟

- ويحك يا عزيزي بوريس! ألم تدرك أنني أمزح؟

ثم قالت: هيا، سأطلب بعض العصير.

فأسرعت كواتسو تبتعد عن الباب، وحين سمعت قرع الجرس تريثت برهة ثم لبت النداء.

* * *

حلّ اليوم التالي دون أن تتلقى كواتسو خبراً عن تومي، فقد أوفدت ألبرت إلى فندق ريتز يسأل عن رسائل باسمها فرجع إليها خاوي الوفاض، فاشتدت بها الهواجس. لقد مضى تومي أول أمس يتعقب هوايتنغ، فهل انكشف أمره ووقع في كمين؟ لا بد لها أن تطلب إذناً بالخروج حتى تتاح لها فرصة تتنسم فيها أنباء شريكها. فقالت لها ربة الدار: لا بأس، فأنا سأتناول عشائي الليلة في خارج الدار فلك أن تخرجي.

وبينما هي منهمكة في إيداع الأواني الفضية بالخزانة رن الجرس، فأسرعت إلى الباب فإذا القادم رجل طويل القامة حاد النظرات، وحين تأملها متفحصاً خُيل إليها أن نظراته نفذت إلى بواطنها فعرف سرها، وحين ذكر لها اسمه السيد جيمس

إدغارتون أخذتها رعدة مفاجئة. إذن هذا هو المحامي الشهير الذي رُشح أكثر من مرة لمنصب الوزارة؟

وبعدما فرغ السيد جيمس إدغارتون من زيارة سيدتها صحبته كواتسو إلى الباب لتقدم إليه معطفه، فتأملها مرة أخرى بنظرة عميقة ثم قال لها: لا أحسبكِ إلا جديدة على هذه المهنة يا ابنتي، أتُراك كنتِ ممرضة قبل ذلك؟

فنظرت إليه بدهشة وقالت: أهي السيدة فانديمير التي أخبرتك؟

- لا يا ابنتي، فمهنتك مرسومة على وجهك. ولكنني أحسبك غير راضية عن عملك هنا، ولكن على أية حال لا ضير من التغيير، بل إن أيّ تغيير جديد قد يفيدك.

فسألته كواتسو: هل تعني يا سيدي أن...

لكنها قاطعها وهو يلوّح بيده: هذه مجرّد كلمة عابرة ولا شيء غير ذلك يا ابنتي.

ثم جذب الباب وراءه وانصرف.

* * *

الفصل الحادي عشر

مضت كواتسو إلى فندق ريتز لمقابلة الأمريكي جوليوس هيرشايمر بعد أن خلعت باروكتها الشقراء ورجعت إلى هيئتها المألوفة، وحين سألته عن أنباء تومي أجاب بأنه لا يعرف شيئاً ثم أردف: لم أره منذ مساء الأربعاء حين التقينا في محطة وترلو.

- محطة وترلو! وماذا كنتما تفعلان هناك؟

- كيف هذا؟ ألم يخبرك بما كنا نفعل؟

- قلتُ لك إنني لم أرَه منذ يومين.

- لقد اتصل بي هاتفياً فطلب مني أن أوافيه في الحال إلى المحطة، وعهد إلي بأن أتعقب رجلاً ضخم الجسم يُدعى هوايتنغ، أما هو نفسه فتكفل بزميله.

فبدا الاهتمام على وجه كواتسو ثم سألته أن يفضي إليها بكل ما حدث، فبدأ يروي لها القصة بالتفصيل، فقال إنه تبع ذلك المدعو هوايتنغ إلى إحدى مركبات الدرجة الأولى، فلما نزل في محطة بورنماوت نزل وراءه، واستقل الرجل عربة إلى

أحد الفنادق وحجز لنفسه غرفة وبغير تردد حذا هيرشايمر حذوه.

ثم استطرد: لزم الرجل الفندق ولم يبرحه إلا بعد تناول العشاء فاستقل مركبة اجتازت به شوارع البلدة إلى إحدى ضواحيها، وكنت في أثره في عربة أخرى على مسافة مناسبة، حتى انتهينا إلى الطريق الزراعي حيث أخذَت البيوت تتناقص وتباعد بعضها عن بعض، ثم نزل من عربته وصرفها ودخل إلى مبنى كبير أبيض اللون، فصرفت سائقي ثم دلفت إلى الحديقة ووقفت وراء إحدى الأشجار أراقب البيت، وطال بي الانتظار دون أن يغادر هوايتنغ البيت. وكانت النوافذ جميعها مغلقة عدا واحدة كانت مفتوحة ومضاءة، فرأيت أن أتسلل إليها لأتبيّن ما يجري في الغرفة، ولكن الستار المسدل عليها حال دون أن أرى ما يحدث في الداخل.

ثم تابع جوليوس حديثه: وتحرك ستار النافذة قليلاً، فرأيت هوايتنغ يطل على الحديقة ويمد يده إلى الخارج يتحسس المطر ثم توارى على الفور خلف الستار، وكانت بالقرب من النافذة شجرة عالية فاستقر عزمي على أن أتسلقها حتى أحاذي الشرفة لأرى ما يفعله هوايتنغ هناك. وكان جذع الشجرة أملس مبللاً بماء المطر ولكنني استطعت الصعود بعد جهد وعناء، ولكن لسوء الحظ كانت الشجرة منحرفة قليلاً عن النافذة لا ينكشف لي داخلها وأنا في موضعي ذاك، فأخذتُ أزحف رويداً رويداً فوق غصن ضخم منها يواجه النافذة تماماً.

ثم أشعل جوليوس هيرشايمر سيجارة وقال يتم حديثه: كان الأثاث يوحي بأنها غرفة مستشفى وليست حجرة للنوم

وتتوسطها منضدة جلس إليها هوايتنغ وامرأة في ثياب الممرضات تعذّر عليّ أن أميز منها إلا جانب وجهها، وكان هوايتنغ يتحدث إليها بانفعال ويخبط المائدة بقبضته من حين لآخَر، وأخيراً رأيتُه ينهض واقفاً ويغادر الغرفة، وعند ذلك تهشم الغصن تحت ثقلي فهويت إلى الأرض.

فهتفت كواتسو: يا إلهي! وهل أصبت؟

- على أية حال لم أشعر بشيء فقد أغمي عليّ، ولكنني حين أفقت وجدت نفسي راقداً في أحد الأسِرّة وعند رأسي رجل ملتح في ثياب الأطباء وممرضة غير تلك التي كانت تجالس هوايتنغ. قال الطبيب حين رآني أتململ في فراشي: "لقد أفاق صاحبنا الشاب"، فغمغمتُ بصوت خافت: "ما الذي حدث؟ أين أنا؟"، ولم يجب الطبيب على أسئلتي بل أشار إلى الممرضة فانصرفت من فورها. وحاولتُ أن أجلس فشعرتُ بألم شديد في ساقي، وقال الطبيب: "ليس هناك شيء خطير، مجرّد التواء بالكاحل وستُشفى خلال يومين". فسألت الطبيب عما حدث فقال لي إنني وقعت من فوق الشجرة إذ انكسر بي الغصن، فقلت له: "من الغريب يا دكتور أنك لم تسألني حتى الآن عما جعلني أتسلل إلى حديقتك وأتسلق شجرتك"، فقال: "وما الذي يدعوني إلى أن أسألك؟"، فقلت: "أنت لم تتصور أنني جئت أسرق أموالك طبعاً؟"، فقال: "وهل في المستشفى ما يمكن أن يسرق؟ هذا المبنى مصحة نفسية وأنا مديرها الدكتور هول".

ثم استطرد جوليوس هيرشايمر قائلاً: وكان لا بد طبعاً أن أُدلي إليه بإيضاح أبرّر به اقتحامي حديقته، فحدثته عن فتاة أهيم بها غراماً قائلاً إن الوصي عليها يكرهني ويعاملها بقسوة

فأصيبَت بانهيار عصبي وأُدخلت بسببه المستشفى، وبلغني أنها أودعت هذا المصحة النفسية وقلت إنني قد جئت أبحث عنها، وصدّق الرجل السليم النية قصتي وغمغم يقول: "يا لها من قصة غرامية!"، فقلت له: "والآن أرجوك يا دكتور أن تجيبني في صراحة وإخلاص. هل يوجد بين مرضاك فتاة تُدعى جين فين؟"، فأخذ يردد الاسم مفكراً ثم أجاب: "لا، ليس بين مرضاي أحد بهذا الاسم". فقلت له: "عندما كنت جاثماً فوق الغصن خُيل إليّ أنني رأيت في إحدى الغرف رجلاً يتحدث إلى إحدى الممرضات، وخُيل إلي أنه صديقي القديم السيد هوايتنغ. فما الذي كان يفعله هنا؟ لا أحسبه مصاباً بانهيار عصبي"، فاستغرق الدكتور هول في الضحك وقال: "لا. إن صديقك القديم سليم الأعصاب، ولكنه جاء يزور ابنة أخيه الممرضة أديث"، فسألته عما إذا كان لا يزال موجوداً في المصحة النفسية، فأجابني بأنه قد سافر مع ابنة أخيه إلى لندن، فقلت: "وهل تعرف عنوانه في لندن؟"، فأجاب: "لا، بكل أسف، ولكنني أستطيع أن أبعث بخطاب إلى الممرضة أديث أستفسر عن عنوانه إن شئت". فشكرته وقلت له أنه لا داعي لأن أجشمه هذه المشقة، ثم انصرفتُ بدوري راجعاً إلى لندن، وحاولت الاتصال بتومي لأبلغه بما حدث ولكني وجدته متغيباً عن الفندق.

فقالت كواتسو: أنا شديدة القلق بشأنه وأخشى أن يكون قد وقع في كمين في أثناء مطاردته لهذا المدعو بوريس.

ثم روت له الأحداث التي مرت بها إلى أن التحقت بخدمة ريتا فانديمير، وقالت: والآن ما العمل؟ كيف يمكن أن نهتدي إلى مكان تومي؟

فقال: لقد ذكرتِ لي أن بوريس الذي كان تومي يتعقبه صديق لريتا وأنه يتردد على بيتها؟

فقالت كواتسو: لقد تناول العشاء عندها منذ يومين.

- حسناً، لا بد أنه سيعود لزيارتها مرة أخرى، ولهذا سأرابط أمام البيت ليل نهار، فإذا زارها وأزمع الانصراف فأسقطي منديلك من النافذة فأتعقبه بسيارتي، فقد يكون تومي سجيناً لديه في بيته.

فقالت كواتسو: وهب أنه مرت أسابيع دون أن يزورها؟

- على أية حال ليس أمامنا إلا هذه الوسيلة.

ثم أردف: سوف أنصرف الآن لأشتري السيارة التي سأرابط فيها فأيّ طراز تفضلين؟

فأجابت مازحة: الرولز رويس طبعاً.

- ليكن، سوف أعود بعد ساعة بسيارة رولز رويس.

فقالت كواتسو: لقد كنتُ أمزح يا سيد شايمر، ثم إن الرولز رويس لا تُسلَّم إلا بالدور ويجب أن توصي عليها قبل موعد التسليم بسنتين.

فرمقها بنظرة مرحة دون أن يتفوه بكلمة، وبعد ساعة رجع يقود سيارة جديدة من طراز الرولز رويس، فسألته كواتسو بذهول: ولكن كيف؟ كيف؟

فأجاب: لقد ذهبتُ إلى الشركة فوجدتهم على وشك أن يسلموا سيارة جديدة لأحد العملاء، فسألت هذا العميل عن

الثمن الذي دفعه فيها فأجاب أنه دفع عشرين ألف دولار، فقلت له: سأدفع خمسين ألفاً وتتنازل لي عن سيارتك.

فتساءلت كواتسو: وبماذا رد عليك؟

- لم يردّ بكلمة على الإطلاق.

- إذن فقد غضب وثار.

- لا أدري، ولكن كل ما حدث هو أنه مدّ يده فتناول الشيك ونزل لي عن السيارة، وها هي ذي في انتظارك عند الباب.

* * *

الفصل الثاني عشر

بعثت كواتسو رسالة إلى السيد كارتر روت فيها له تفصيلات ما وقع من أحداث. ثم انقضى يوم الجمعة والسبت دون أن يقع جديد ودون أن ينكشف أيّ أثر لتومي وأخذ اليأس يدب إلى نفس كواتسو، وفي خلال ذلك كان جوليوس هيرشايمر رابضاً في سيارته الرولز رويس قريباً من بيت ريتا فانديمير يترقب أن يزورها بوريس حتى يتعقبه لعله يجد في ذلك ما يرشده إلى المكان الذي يحبسون فيه تومي، هذا إذا كانوا لم يقتلوه.

وحلّ يوم الأحد فاغتنمت كواتسو فرصة عطلتها الأسبوعية ومضت إلى لقاء جوليوس هيرشايمر وقالت له: والآن ما العمل؟ ها أنت رابض في سيارتك أمام البيت في انتظار بوريس.

فقال: وبوريس لا يأتي.

فحدثته عن السيد جيمس إدغارتون المحامي الشهير، وكلمته التي ألقى بها إليها عند مغادرته بيت ريتا، ثم استطردت تقول: لماذا لا نلجأ إليه ونسترشد برأيه؟ إنه رجل علّمته التجارب، ثم إنه أبدى اهتماماً بأمري وقد نجد عنده رأياً حكيماً.

فعارض جوليوس رأيها بشدة، ثم أذعن إليها. وبعد ساعة كانا في حضرة الرجل العظيم. واعتذرت إليه كواتسو عن إزعاجه على غير موعد سابق، ثم قالت: عند انصرافك يا سيدي من بيت السيدة فانديمير منذ أيام ألقيتَ إلي بكلمات مبهمة أوحت إليّ بأنك كنتَ تُحذرني منها، فما الذي كنتَ تعنيه بالضبط؟

فابتسم لها السيد جيمس إدغارتون بسماحة وقال: يا ابنتي العزيزة، أنا لم أكن أعني إلا أن هناك أعمالاً أنسب لك من عمل الوصيفة لدى السيدة فانديمير، خاصة وأنت فتاة مدربة.

فقالت: ولكن سبق أن عملت وصيفة يا سيدي. ثم أردفت بإصرار: ما الذي تأخذه على السيدة فانديمير يا سيدي؟ أنا أشعر أنك تكتم أمراً عني.

فرماها بنظراته النفاذة المأثورة عنه والتي يعري بها ما في النفوس من خفايا ثم قال باسماً: هذا لأنك أنت نفسك تكتمين أمراً عني! أليس أولى بك أن تكاشفيني بما تهدفين إليه؟ لقد جئتِ إليّ لتسأليني عما كنتُ أعنيه بكلماتي، فما هدفك الحقيقي؟

نظرت كواتسو إلى صديقها جوليوس هيرشايمر فقال لها الأمريكي: صارحيه بكل شيء يا كواتسو.

فأخذت كواتسو تروي له القصة بحذافيرها، منذ البداية حين ذهبت إلى المكتب وأخذت الخمسين جنيهاً، إلى أن تنكرت باستخدام باروكة الشعر الأشقر لتعمل وصيفة لدى السيدة فانديمير، ثم اختتمت قصتها بأن سألت السيد جيمس: فما رأيك يا سيد جيمس فيما حدث لتومي؟ لا شك أنه وقع في

أيديهم، فهل قتلوه؟ أم اكتفوا بأن سجنوه؟

غمغم السيد جيمس بكلمات مبهمة ثم أردف: كان في نيتي يا ابنتي العزيزة أن أسافر غداً إلى اسكتلندا لأقضي أسبوعا أتسلى فيه بصيد السمك، لكن يبدو أنني سأبقى في لندن لأتسلى بصيد من نوع آخَر.

وفي غمرة الحماس والانفعال شدت كواتسو على يد جيمس تشكره بحرارة، ثم سألته: ولكن ما الذي تنوي أن تفعله يا سيدي؟

فأجاب: خططي بسيطة ومباشرة دائماً. سأقابل ريتا فانديمير وأوجه إليها سؤالاً صريحاً: أين تومي؟

فقالت كواتسو: ولكنها طبعاً ستُنكر وتكذب.

فرمقها المحامي الشهير بتلك النظرة النفاذة التي طالما جعلت عتاة المجرمين ينهارون ويعترفون، وقال: سأرغمها على أن تتكلم وتعترف بكل شيء.

- ولكن كيف؟ هل تنوي أن تعذبها وتقتلع أظافرها أو تكويها بالنار؟

فابتسم السيد جيمس وأجاب: لم يُعرَف عني قط أنني عذبت أحداً، كما لم يُعرف عني قط أن مجرماً صمد أمام استجوابي، فهلا اعتمدتِ عليّ يا ابنتي؟ ثم أردف: أنت اليوم في عطلة، ولكن في أية ساعة تعودين إلى عملك؟

- في التاسعة والنصف مساء.

- حسناً، في العاشرة تماماً سأحضر لزيارة السيدة فانديمير، وسيرافقني السيد هيرشايمر، وإن كنت أؤثر أن يبقى بالطريق خارج الباب حتى أستدعيه.

فعادت كواتسو تقول: سيد جيمس، أنا ما زلت قلقة، فما العمل إذا رفضت السيدة فانديمير أن تتكلم أو أن تخبرك عن مكان تومي؟

فأجاب السيد جيمس ببساطة: في هذه الحالة نشتريها.

هتف هيرشايمر: أنا على استعداد لأن أنقدها مليوناً من الدولارات.

فرمقه السيد جيمس بنظرة ثم سأله: أنت غني إلى هذا الحد؟

- لقد ترك لي أبي من آبار البترول ما لا أستطيع أن أحصيه.

- إذن فأنت لست شرطياً سرياً.

- لا يا سيد جيمس، أنا ابن عم جين فين، وقد رصدت مكافأة كبيرة لمن يأتيني بأنباء عنها.

فقال السيد جيمس: والآن إلى موعدنا هذا المساء.

فقال جوليوس هيرشايمر: سأمرّ عليك يا سيدي في التاسعة والنصف لنذهب معاً إلى بيت السيدة فانديمير.

- شكراً لك، وإلى اللقاء.

قالت كواتسو تخاطب جوليوس هيرشايمر وهما يغادران

منزل السيد جيمس إدغارتون: ما رأيك فيه؟ أليس رجلاً لطيفاً وشهماً؟

فقال جوليوس: لقد أنكرتُ عليك أن تتصلي به في البداية، أما الآن فقد أدركتُ أنني مخطئ، والآن هيا بنا إلى فندق ريتز.

- ولكن أرجو أن تدعني أنزل على مقربة من الحديقة؛ فأنا أشعر أنني مضطربة الأعصاب قليلاً.

- على أن نلتقي في الفندق في السابعة مساء.

فأنزلها حيث شاءت، فأخذت تتمشى على الرصيف وتتسلى بالنظر إلى واجهات المتاجر، وعلى غير وعي منها حملتها قدماها إلى مقربة من أودلي حيث تقيم السيدة فانديمير، وبينما هي تبتعد عن العمارة سمعت وقع خطوات تركض في أعقابها وصوت يناديها، فاستدارت باستغراب فإذا بعامل المصعد ألبرت هو الذي يلهث وراءها، ثم قال لها بانفعال: أين كنتِ يا آنسة برودانس؟ أنا أبحث عنكِ منذ نصف ساعة.

فسألته بدهشة: ولكن ما الذي جرى؟ هل من جديد؟

فأجاب: نعم، سوف تسافر.

- مَن التي ستسافر؟

- السيدة فانديمير. ستهرب، فقد أمرتني أن أستدعي لها سيارة أجرة في السادسة والنصف، وقد رأيتُها تجمع حقائبها.

نظرت كواتسو في ساعتها فوجدتها قد تجاوزت السادسة

ببضع دقائق، ثم استطرد الفتى يقول: يبدو أنها استرابت فيكِ فقررت أن تهرب.

فربتت كواتسو على كتفه وقالت: الحق أنك كنز لا يُقدَّر يا ألبرت، والآن سأسألك خدمة. اتصل بفندق ريتز واطلب السيد شايمر واطلب منه أن يسرع في الحال إلى مقابلة السيد جيمس، وقل له إن السيدة فانديمير حزمت حقائبها وأنها تنوي الهرب. هل وعيت الأسماء؟

كرر ألبرت الاسمين، فقالت له: والآن أسرع أرجوك.

ومشى ألبرت راكضاً لينجز مهمته، ولم تترد كواتسو لحظة بل استقلت المصعد وصعدت إلى مسكن السيدة فانديمير وضغطت الجرس. أجل، يجب أن تحول دون هربها بأية وسيلة. وفتحت لها ريتا الباب، وسألتها بدهشة: ما الذي جاء بك الآن؟ المفروض أن هذا يوم عطلتك وأنك لن تعودي إلا في التاسعة.

فأجابت كواتسو : لقد شعرتُ بألم في أسناني فرأيت أن أرجع لأستريح.

فقالت ريتا بصوت رقيق، وإن برقت عيناها بوميض مخيف: يؤسفني أنك تتألمين، والآن اصعدي إلى غرفتك واستريحي.

- أنا أفضل أن أجلس في المطبخ قليلاً.

فارتسمت على شفتي ريتا ابتسامة شيطانية ثم قالت: قلت لك اصعدي إلى غرفتك.

وكان صوتها مليئاً بالقسوة والوعيد، وفي اللحظة التالية رأت كواتسو في يد ريتا مسدساً مصوباً إليها، ثم ارتفع صوت ريتا وهي تقول: أيتها الحمقاء، أظننت أنني لم أنتبه إلى أمرك؟ يا لك من جاسوسة حقيرة! ستصعدين إلى غرفتك وستنامين وسيكون نومك مريحاً وطويلاً.

ثم دفعتها إلى غرفة النوم بتهديد المسدس، وهناك رأت حقائب السفر محزومة ومصفوفة، فقالت كواتسو: أنتِ لن تستطيعي إطلاق النار وإلا سمعك السكان.

وكان جواب السيدة فانديمير: هذه مخاطرة أرتضيها لنفسي. ثم أردفت: ومع ذلك لن أطلق النار عليك إلا إذا اضطررتُ، فإذا كنت حريصة على حياتك فدعك من المقاومة ونفّذي أوامري. هيا اجلسي على هذا السرير وارفعي ذراعيك إلى أعلى.

ولم ترَ كواتسو مناصاً من الطاعة والانصياع، فقالت السيدة فانديمير: يسرني أن تكوني عاقلة ومطيعة.

فوضعت السيدة فانديمير المسدس على المنضدة وتناولت من فوقها زجاجة صغيرة صبت قدراً منها في قدح به قليل من الماء، ثم استدارت إلى كواتسو قائلة: والآن اشربي هذا.

هتفت كواتسو: لا، لا، مستحيل، فأنت قد وضعت فيه سماً.

- هذا ليس سماً، هو مجرّد عقار منوّم.

- لا، إنه سم، فأنت تريدين أن تقتليني.

- قلتُ لكِ إنه منوم وليس سماً، هيا اشربي.

- مستحيل، مستحيل، لن أموت أبداً مسمومة! أنا أفضّل أن تطلقي عليّ النار.

- لا تكوني غبية أيتها الجاسوسة، أقسم أنه منوم. أتظنين أن بي مساً من الجنون حتى أُطلق الشرطة في أثري متهمَة بارتكاب جريمة قتل؟

- أتقسمين أنه منوم؟

فأقسمَت، ثم نزلت كواتسو من فوق السرير ومدت يدها وتناولت القدح من يد ريتا ورفعته رويداً رويداً إلى شفتيها، ثم تجمدت يدها عند فمها مترددة محجمة فصرخت فيها ريتا وهي تضرب الأرض بقدمها غاضبة: هيا اشربي، فهو منوم لا يؤذي. كل ما هنالك أنك ستنامين حتى تتاح لي فرصة الهرب.

وحركت كواتسو يدها التي تمسك بالقدح وأدنته من فمها، وفي اللحظة التالية تحركت يدها بقوة إلى الناحية المضادة وقذفت بالسائل في وجه ريتا، فصرخت ريتا متألمة وأطبقت عينيها، وحين فتحتهما كانت كواتسو منتصبة أمامها والمسدس في يدها قائلة لها: إياكِ أن تتحركي وإلا فلن أتردد في إطلاق النار.

صرخت ريتا وهي تهتز غضباً: الويل لك! في يوم من الأيام ستدفعين الثمن.

ابتسمت لها كواتسو وقالت بهدوء: والآن اجلسي. لا، ليس على السرير بل على هذا الكرسي كي نتبادل الحديث.

فاستوت ريتا جالسة وهي تقول: وعمّ نتحدث؟

- عن الثمن الذي تطلبين.

كانت كواتسو لا تزال تذكر كلمات هوايتنغ في أول لقاء بينهما حين قال لها: "أهي ريتا التي أفشت إليكِ السر؟"، كما أنها لم تنسَ أيضاً كلمات السيد جيمس إدغارتون إذ قال: "إذا أبَت ريتا أن تتكلم فأنا سأشتريها". إذن فريتا من الطراز الذي يجري وراء المال ولا يتردد في الغدر بزملائه ما دام سيتلقى الثمن.

قالت ريتا متسائلة: ما الذي تقصدين؟ عن أيّ ثمن تتحدثين؟

- ثمن معلوماتك.

- أتظنين أنني أوافق على أن أغدر بأصدقائي وأبيعهم؟

- ولمَ لا ما دام الثمن مرتفعاً؟

فضحكت السيدة فانديمير بسخرية وقالت: لعلكِ تنوين أن تعرضي علي مئة جنيه؟

- بل أعرض عليك مئة ألف جنيه.

فقد كانت كواتسو تعرف في قرارة نفسها أن الأمريكي جوليوس هيرشايمر لن يضن حتى بمليون من الجنيهات، فضحكت ريتا هازئة وهي تقول: ومن أين لكِ بهذا المبلغ؟

- من صديق لي من أصحاب الملايين.

تريثت ريتا برهة ثم قالت: يبدو لي أنكِ صادقة؟

- أقسم أن هذا عرض حقيقي وأنني لا أخدعك.

فسألتها: وما الذي تريدين أن تعرفيه يا صديقتي؟

- أريد أن أعرف أين جين فين الآن؟

فأجابت: ليست لديّ أية فكرة عن مكانها الآن.

- ولكنكِ تستطيعين أن تعرفي، ولن يكون هذا بالأمر العسير.

واستطردت كواتسو: لي صديق كان يتعقب بوريس ثم اختفى فجأة، فما الذي تعرفين عنه؟

- وما اسم هذا الصديق؟

- تومي برسفورد.

فهزت رأسها سلباً وقالت: ما سمعتُ بهذا الاسم من قبل، ولكنني سأسأل بوريس وهو لن يخفي عني شيئاً. ثم أردفت: أهذا كل شيء؟

- بل ثمة سؤال آخَر. من السيد براون؟

فشحب وجه ريتا وأخذتها رعدة واضحة، ثم تمالكت نفسها وأجابت: ألا تعلمين أنه لا أحد فينا يعرف من السيد براون؟

فقالت كواتسو بهدوء: ولكنك تعرفينه.

- وما الذي جعلك تظنين هذا؟

- لا أدري، هذا مجرّد خاطر طرأ بذهني، فأنت امرأة جميلة ومن المحتمل أنه وقع في غرامك فكشف لك سره.

- أجل، لقد أدار جمالي رأسَه فهام بي حباً وكشف لي عن حقيقة شخصيته. أنا أعرف من السيد براون.

ثم أردفت: هل تقسمين على كتمان اسمي؟

- أقسم، لن يعرف أحد أنك أنت التي أفشيت السر.

- والمئة ألف جنيه؟ متى تُدفع إليّ؟

- غداً صباحاً، وأقسم على ذلك.

فزعت ريتا وأدارت رأسها في هلع ثم غمغمت: ما هذا؟ لقد خُيل إليّ أنني سمعتُ صوتاً.

- مجرّد وهم يا سيدة فانديمير فنحن وحدنا في المسكن، والآن مَن هو السيد براون؟

قالت ريتا بتردد وإحجام وبكلمات متقطعة: إن السيد... براون... هو...

وفجأة شحب لونها وجحظت عيناها واتجهت ببصرها ناحية باب الغرفة والرعب يطل من عينيها، فقد كان في مدخل الغرفة رجلان لم تسمع المرأتان لخُطاهما وقعاً، وكان الرجلان هما الأمريكي جوليوس هيرشايمر والمحامي الشهير جيمس إدغارتون.

* * *

الفصل الثالث عشر

ترنحت ريتا فانديمير في جلستها ومال رأسها فوق صدرها وأغمي عليها، فأسرع إليها السيد جيمس يجس نبضها وهو يقول: عليّ بعصير الليمون، هذه مجرّد صدمة عصبية لرؤيتها لنا فجأة داخل الغرفة دون أن تشعر بقدومنا.

وعادت كواتسو بعد لحظات بقدح من عصير الليمون فأدناه السيد جيمس من شفتي ريتا، ثم أفرغه في جوفها فانتعشت قليلاً وفتحت عينيها ودارت بهما في وجوه من حولها في تعب وإعياء، ثم تراخى جفناها وانطبقت عيناها وراحت في إغماءة جديدة، فتعاون الرجلان على نقلها إلى الفراش وأرقداها عليه، ثم قال السيد جيمس: اطمئنا، فهي لن تلبث أن تفيق.

ثم تحول السيد جيمس إلى كواتسو يسألها: والآن قصّي علينا كيف عرفت أن ريتا تنوي الهرب.

فروت لهما كيف أخطرها عامل المصعد ألبرت بما عرفه من اعتزام السيدة فانديمير الفرار وما كان من صعودها إليها وإغرائها بالمال حتى تُفضي إليها بما لديها من معلومات وأنها كانت طَوال الوقت خائفة محجمة.

فقال جوليوس هيرشايمر: لعلها تخشى أن يكون هناك ميكروفون مدسوس في الغرفة، فالسيد براون فيما فهمتُ رجل خطير لن يحجم عن قتلها إن علم أنها ستغدر به.

وانبرت كواتسو تقول: إذن يجب أن نسهر عليها حتى لا يلحقها أذى، يجب أن نبيت الليلة هنا.

فأمّن السيد جيمس على قولها موافقاً بقوله: أجل، يجب أن نحميها من ذلك الشيطان السيد براون. أغلقي باب حجرة النوم واحتفظي بالمفتاح في جيبك يا آنسة كواتسو، وأغلقي الباب الآخر المفضي إلى الردهة أيضاً، أما نحن فسنجلس هنا في البهو ساهرَين.

أغلقت كواتسو باب حجرة النوم بالمفتاح ودسته في جيبها، ثم مضت إلى المطبخ كي تعد بعض الشطائر، ثم اجتمعوا في البهو يتناولون الشطائر ويحتسون الشاي ويتسامرون، وحرصوا على أن يظلوا ساهرين لا يغمض لهم جفن حتى لا تُتاح للسيد براون فرصة للبطش بريتا فانديمير.

قال جوليوس: الشيء الذي ما زال يحيرني هو السبب الذي حدا بريتا إلى حزم حقائبها ومحاولة الفرار.

قالت كواتسو: لا أدري. إن الأمر يبدو غريباً.

فقال جوليوس: لا بد أن السيد براون هو الذي أمرها بالرحيل، ولكن لماذا؟ لا أحد يدري.

قالت كواتسو: تُرى أين جين فين الآن؟ ريتا نفسها لا تعلم مكانها.

فقال السيد جيمس: أما أنا فأعلم.

فحملق فيه الآخَران بدهشة فابتسم قائلاً: أنا أعرف أين كانت على الأقل. لقد كانت في تلك المصحة النفسية التي زارها السيد هوايتنغ ليلة أن وقع السيد هيرشايمر من فوق الشجرة.

فقال جوليوس هيرشايمر: ولكنني استفسرت من الطبيب فأنكر وجودها وقال إنه لا يعرف أحداً بهذا الاسم.

- هذا لأنك سألته عن جين فين يا صديقي العزيز، وما من شك في أن الذين أودعوها المصحة النفسية أطلقوا عليها اسماً مستعاراً.

- هذا محتمل جداً.

قالت كواتسو: ألا يُحتمل أن يكون الطبيب نفسه من أفراد العصابة؟

فهتف جوليوس مستنكراً: الدكتور هول! مستحيل، فهو يبدو رجلاً شريفاً جداً.

قال السيد جيمس: الدكتور هول؟ يا لها من مصادفة عجيبة! معرفتي به سطحية، وقد اتفق أن التقيتُ به اليوم صدفة في الطريق فأخبرني أنه يقيم في فندق متروبول، فلماذا لا نذهب إليه غداً ونستفسر عن جين فين؟

قال جوليوس: وما الداعي لهذا ما دامت ريتا ستزودنا بكل ما نريد من معلومات؟

فعقبت كواتسو: هذا صحيح.

غير أن صوتها كان يفتقد رنة الثقة والاطمئنان، ثم استطردت: تُرى ما الذي سيحدث غداً؟ هل تبرّ ريتا بوعدها أم يتملكها الخوف من السيد براون فتمسك لسانها؟ أو يستريب السيد براون في أمرها فيقتلها؟

فقال السيد جيمس ضاحكاً: وكيف يصل إليها والباب مغلق بالمفتاح ونحن جلوس هنا نرى كل من يحاول الدخول؟

وظلوا ساهرين حتى الصباح لم يغمض لهم جفن. ومضت كواتسو إلى المطبخ تعد طعام الفطور ثم رجعت تحمل صحاف الطعام وأربعة أقداح من الشاي، فسألها جوليوس: ولمن القدح الرابع؟

- لأسيرتنا ريتا، هذا ما لم تكن قد هربت.

وحملت إليها قدحاً، ثم أخرجت المفتاح من جيبها وفتحت الباب فوجدَتها راقدة على الفراش مُطبقة العينين، فنادتها: هيا استيقظي.

ولكن ريتا لم ترد ولم تتحرك، فوضعت كواتسو القدح على المنضدة ثم مالت إلى الفراش وأمسكت بيد ريتا تهزها لتوقظها، ثم ارتدّت إلى الوراء فزعة خائفة وقد أطلقت صرخة مدوية، فقد كانت يد ريتا باردة مثلجة! فأسرع الرجلان على أثر الصرخة، وغمغم السيد جيمس وهو يجس نبضها: لقد ماتت منذ بضع ساعات.

فهتف جوليوس: ولكن كيف ماتت؟ كيف حدث هذا؟!

ثم جاء طبيب فحص الجثة وقال: هذه أزمة قلبية، وربما

أيضاً جرعة كمية كبيرة من منوّم قوي شديد المفعول، ولا شك أنها أخطأت فزادت الجرعة عن الحد المناسب.

ونظرت كواتسو إلى المنضدة فرأت زجاجة المنوم التي صبّت منها ريتا بضع قطرات في قدح الماء الذي حاولت أن ترغمها على شربه حين كانت تهددها بمسدسها، وقد كانت الزجاجة ممتلئة حتى نصفها، أما الآن فكانت فارغة ليس فيها قطرة واحدة.

* * *

الفصل الرابع عشر

قال جوليوس هيرشايمر بوجوم: والآن ما العمل؟ لقد ماتت ريتا وسُدّت أمامنا السبل.

فأجابه السيد جيمس إدغارتون: هل نسيت أنه ما زالت في يدنا ورقة رابحة؟ الدكتور هول.

- الحق أنني كدت أنسى.

ومضت كواتسو وجوليوس إلى فندق ريتز ورجع السيد جيمس إلى داره، على أن يتلاقوا في الحادية عشرة في بهو فندق متروبول.

استقبلهم الطبيب في جناحه ورحب بالسيد جيمس باحترام شديد، ثم قدّم إليه المحامي صاحبيه، السيدة كاولي والسيد هيرشايمر، فرمق الطبيبُ الشابَ الأمريكي بنظرة مرحة وهو يقول: لقد سبق أن تشرفتُ بلقائه حين وقع من فوق شجرتي وأفسد زهوري.

فأغرقوا جميعاً في الضحك. وتولى السيد جيمس الحديث فقال: أنا أبحث يا عزيزي الدكتور عن فتاة معينة لكي تشهد أمام المحكمة في إحدى قضاياي، ولديّ من الأسباب ما يجعلني

متأكداً من أن تلك الفتاة كانت تنزل في مصحتك في بورنماوت في يوم من الأيام، ولعلي لا أنتهك سر المهنة إذا أنا رجوتك أن تُدلي بما تعلمه عنها.

فأجاب الدكتور هول: ما دامت الفتاة شاهدة قضائية فليس من حرج عليّ في أن أزودك بما تريد، فما اسم هذه الفتاة؟ أهي نفسها تلك التي سألني عنها السيد هيرشايمر من قبل؟

فقال السيد جيمس: ليس للاسم أهمية؛ فلا شك أنها أُدخلت مصحتك باسم مستعار. ولكنني أريد أولاً أن أسألك عما إذا كانت لك معرفة بالسيدة فانديمير أم لا؟

- السيدة فانديمير؟ نعم، إن لي بها معرفة محدودة.

- لقد ماتت، حيث إنها تناولت جرعة زائدة من عقار منوم.

- يا إلهي! ومتى حدث ذلك؟ وهل كان عن عمد؟

- بل كان صدفة وعن خطأ، وقد وقع الحادث أمس.

- لم تشر الصحف إلى هذا؟ فمن أين علمتَ يا سيد جيمس؟

- أنا الذي عثرت عليها ميتة.

ثم استطرد السيد جيمس قائلاً: ألم تعهد إليك السيدة فانديمير بفتاة من قريباتها؟

- بلى، حدث هذا؛ الآنسة جانيت فانديمير ابنة أخيها.

- ومتى أودعَتها لديك؟

- منذ ثلاث سنوات تقريباً.

- وما طبيعة مرضها؟

- لقد أخبرتني السيدة فانديمير أن جانيت كانت في الباخرة الباسيفيك عند غرقها ويبدو أنها أصيبت بصدمة عصبية عنيفة.

قال السيد جيمس معقباً: يبدو أن أبحاثنا كُللت بالنجاح.

فقال الدكتور هول: أتعني أن هذا الفتاة جانيت فانديمير هي الشاهدة القضائية التي تبحث عنها؟

- تماماً، فالآن وقد عثرنا عليها...

غير أن الدكتور هول قاطعه بقوله: ولكنك لن تنتفع منها بشيء يا سيد جيمس، فهي لن تستطيع أن تُدلي بالشهادة المطلوبة.

- يا إلهي! وما الذي يحول دون ذلك؟

- جانيت فانديمير مصابة بفقدان الذاكرة.

فوجم الحاضرون من أثر الصدمة، وقال السيد جيمس: وإلى أيّ حد فقدت ذاكرتها؟

فأجاب الدكتور هول: لا تذكر شيئاً على الإطلاق عمّا وقع قبل غرق الباسيفيك، أما بعد ذلك فذاكرتها عادية سليمة شأنها شأن أيّ إنسان.

- وما الذي تذكره عن ماضيها؟

- لا شيء أكثر من اجتماعها مع سائر الركاب على ظهر

الباخرة تأهباً للنزول إلى قوارب النجاة، أما ما قبل ذلك فلا تعي منه شيئاً. إن حالتها فريدة تستحق الدراسة، تصور يا سيد جيمس أنها لا تذكر اسمها ولا من أين جاءت ولا أين كانت ذاهبة، بل لقد نسيت حتى لغتها الإنكليزية وأصبحت لا تتكلم إلا الفرنسية!

فقال السيد جيمس: هذا عجيب! ولكن أمَا من علاج لهذه الحالة؟

- لا أعتقد، ولكن ذاكرتها قد تعود إليها فجأة كما ذهبت فجأة، فهذا كثيراً ما يحدث، وفي الطب حالات معروفة يصاب فيها المريض بصدمة عصبية مفاجئة تعيد إليه ذاكرته، صدمة مشابهة في ظروفها لتلك التي تسببت في فقدان ذاكرته.

فقال جوليوس هيرشايمر متسائلاً: أتعني يا دكتور أنه من المحتمل أن تعود إليها ذاكرتها إذا هي تعرضت لظروف مماثلة لحادث غرق الباخرة الباسيفيك؟

- هذا محتمل جداً.

فقال جوليوس هيرشايمر بحماسة: إذن فالأمر سهل يسير. سنأتي بباخرة ونغرقها وجانيت فانديمير فوق سطحها، ما دام هذا هو الطريق إلى شفائها.

فنظر إليه الدكتور هول بدهشة وقال: تُغرق باخرة بمن عليها كي تشفيها؟

فابتسم جوليوس قائلاً: لم أعنِ هذا طبعاً، بل قصدت أن أقول إننا سنمثّل غرق باخرة كما يحدث في الأفلام، مجرّد

صرخات وصيحات استنجاد وإنزال قوارب النجاة إلى الماء... إلى غير ذلك، أي إعادة مشهد غرق الباخرة الباسيفيك. فما رأيك يا دكتور؟

- قد يكون هذا هو العلاج الناجح يا سيد هيرشايمر، ولكن من أين لك بالمال الذي يفي بكل هذا؟ إن استئجار باخرة سيكلفك مبلغاً باهظاً.

- كن مطمئناً يا دكتور؛ فلديّ مال لا يُحصى، فما رأيك؟

رمقه الطبيب بنظرة باسمة وقال: أنت أمريكي، وأنتم معشر الأمريكيين فيكم شذوذ عجيب وتصدر عنكم تصرفات لا يتوقعها أحد.

فقال جوليوس: والآن هيا بنا إلى المصحة النفسية لتعيد إلينا جانيت فانديمير حتى أشرع على الفور في تنفيذ مسرحية الغرق.

- ولكن جانيت فانديمير لم تعد موجودة في المصحة النفسية الآن.

* * *

الفصل الخامس عشر

هب جوليوس فزعاً وهو يصيح: جانيت غير موجودة! كيف ذلك؟

- كنتُ أظنكم تعرفون. لقد خرجت من المصحة النفسية يوم الأربعاء الماضي، في نفس الليلة التي وقعتَ أنت فيها من فوق الشجرة.

- يا إلهي! وهل خرجت قبل وقوعي أم بعده؟

- بل بعده، فقد اتصلت بي السيدة فانديمير وطلبت منّي أن أخرجها في الحال في صحبة الممرضة.

- وطبعاً كانت الممرضة هي أديث قريبة السيد هوايتنغ.

- تماماً، ولكن أليست جانيت موجودة عند عمتها السيدة فانديمير الآن؟

فسأله السيد جيمس عما إذا كان يعرف عنوان الممرضة أديث، فأجاب: لا، ولكنني أعتقد أنها موجودة في صحبة الفتاة في بيت السيدة فانديمير، ولكن ما بالي أراكم مرتبكين؟ هل اختُطفت الفتاة؟

فأجاب السيد جيمس: هذا ما سوف نتحقق منه.

ثم شكر السيد جيمس الطبيب على تعاونه وانصرف مع صاحبيه. وتساءلت كواتسو: والآن ما العمل؟ ما خطوتنا التالية؟

فهز السيد جيمس كتفيه بأسى وقال: والآن ليس أمامنا إلا أن ننشر إعلاناً نطلب فيه معلومات عن الممرضة أديث التي كانت تصحب جين فين.

فقالت كواتسو: وماذا بشأن تومي؟

فعاد السيد جيمس يقول وفي نبراته رنة القنوط: كل ما نملك هو أن نرجو ونأمل أن يعود إلينا سالماً.

وأخذ السيد جيمس بيدها في عطف ورثاء وقال: لا تحزني ولا تبتئسي يا ابنتي، فليس أمامنا إلا أن ننتظر. أنا سوف أسافر غداً إلى اسكتلندا لأقضي أياماً في راحة واستجمام، ولكن إذا جدّ شيء فلا تترددي في الاتصال بي فسأحضر على الفور.

فلم يسعها إلا أن تشكره على ما بذل من عون، فقال لها: ومع ذلك فإن المرء حتى في أيام عطلته يستطيع أن يفعل الكثير.

وخالجها من نبرات صوته أنه يعني أكثر مما حوت الكلمات المجرَّدة، فرفعت إليه عينيها وهمت بأن تستفسر، ولكنه لوّح لها بيده بإيماءة خفيفة قائلاً: لا، لا تسألي؛ فأنا لن أضيف كلمة أخرى. إن من الخطأ أن يسرف المرء في الكلام يا ابنتي ومن الحكمة أن لا يُفضي الإنسان بكل ما يعلم حتى إلى

أقرب الناس. تذكّري هذه الحكمة واعملي بها.

وقفت كواتسو تشيعه ببصرها وهو يبتعد وقد أخذت تسائل نفسها عما يرمي إليه بهذه الكلمات. تُرى هل ينوي أن يعمل في الخفاء دون أن يكشف لأحد عن خطته؟

وانتزعها من خواطرها أن دعاها جوليوس إلى ركوب السيارة ثم قال لها: ما لك شاردة الذهن؟ هل قال لك محامينا العجوز شيئاً؟

وهمّت بأن تجيب ولكنها ما لبثت أن أطبقت شفتيها، فقد ذكرت الحكمة التي أوصاها بها السيد جيمس إدغارتون حين قال لها: «من الحكمة ألاّ يُفضي الإنسان بكل ما يعلم حتى إلى أقرب الناس إليه». وفي نفس اللحظة وَمَضت في ذهنها ذكرى أخرى. لقد تمثلت جوليوس هيرشايمر واقفاً أمام الخزانة في مسكن السيدة فانديمير يبحث فيها وهي تسأله عما إذا كان قد وجد شيئاً، ثم سكت سكتة قصيرة متردد قبل أن يجيب: "لا، لا شيء"، فهل لم يجد في الخزانة شيئاً حقاً أم أنه وجد شيئاً فأخفاه واحتفظ به لنفسه؟

ثم عاد جوليوس يسألها عما قاله لها السيد جيمس فأجابت: لا شيء، لم يقل شيئاً.

فقال لها: ما رأيك في نزهة قصيرة في الحديقة؟

فأجابت: ما دُمتَ راغباً فلا مانع.

ومشيا صامتَين برهة من الوقت، ثم قال لها جوليوس فجأة: آنسة كواتسو، أتعتقدين أننا سنعثر على جين فين؟

فقالت: لا أدري. لقد نصحنا السيد جيمس بأن ننشر إعلاناً قد يهدينا إلى الممرضة التي صحبتها.

فقال: أتعلمين، أنا لا أحب هذا الرجل يا آنسة، رغم أنه شديد الذكاء ورغم أنه حاول أن يساعدنا بكل إخلاص. ثم أردف: أرى أنه لا داعي الآن لبقائي في إنكلترا بعد أن فشلت جهودنا، ولذلك قررت أن أعود إلى أمريكا.

فنظرت إليه بدهشة وقالت: وتومي؟ هل تتخلى عنه؟

فقال: آسف؛ فقد نسيت السيد برسفورد. طبعاً سأبقى بجانبك لنبحث عنه.

ثم توقف في سيره ورمقها بنظرة ثابتة وقال: آنسة كواتسو، أتسمحين لي بسؤال؟

فقالت: سل ما بدا لك.

- هل... هل بينك وبين تومي شيء؟ أعني أهو خطيبك؟

فأجابت: لا شيء على الإطلاق، نحن مجرّد أصدقاء.

- لِمَ لم تتزوجي حتى الآن يا آنسة كواتسو؟

- لأن جميع من عرضوا عليّ الزواج كانوا فقراء، وقد عزمت على أن لا أتزوج إلا رجلاً غنياً.

- غني إلى أيّ حد؟ ما مقدار ثروته؟

فضحكت كواتسو وأجابت: هذا شيء لم أفكر فيه.

فالتفت إليها قائلاً: ما رأيك فيّ؟ أنا أعرض عليك الزواج،

وأنا كما تعلمين من أصحاب الملايين، وبذلك يكون شرطك قد تحقق.

فقالت: آسفة، لا أستطيع.

- ولماذا لا تستطيعين؟ ما السبب؟

وحين لاذت بالصمت قال جوليوس: على أية حال فكري في الأمر وأرجئي جوابك إلى الغد.

* * *

حين خلت إلى نفسها في غرفتها في ريتز غمغمت تقول: ما أشد حماقتي! طوال عمري وأنا أحلم بأن أتزوج رجلاً غنياً، وهذا جوليوس هيرشايمر يعرض عليّ ملايينه التي لا تحصى، فكيف أرفض!

ولكن حين استدارت واستقر بصرها على صورة تومي الموضوعة على المنضدة بجانب الفراش أدركَت على الفور سبب الرفض، فغمغمت: آه تومي، كم أحبك!

إن جوليوس يريد منها رداً، يريد أن يعرف سبب رفضها، فماذا عساها تقول له؟ وحين تمالكت نفسها وهدأ بالها قفزت إلى ذهنها فكرة روّعتها وبعثت الرعب في نفسها. تُرى ما الذي كان يفعله جوليوس أمام خزانة ريتا؟ وهل وجد فيها شيئاً؟ لا، وما هذا الذي وجده؟ لا، لا، مستحيل. هذه فكرة فظيعة، ولكنها الفكرة الوحيدة التي يمكن أن تفسر كل شيء.

ثم تناولت ورقة وجلست تكتب خطاباً لجوليوس، ثم أودعته مظروفاً ومضت به إلى غرفة جوليوس، ولما لم يجب

على طرقاتها أدارت المقبض فانفتح الباب. كانت غرفة جوليوس خالية فوضعت الخطاب على المنضدة وعادت إلى حجرة نومها. وما لبثت أن سمعت نقرات على بابها، وإذا بالخادم يناولها برقية وردت باسمها. فضّت البرقية ونظرت إلى اسم مرسلها، ثم فغرت فمها دهشة وذهولاً. لقد كانت البرقية من تومي برسفورد!

* * *

الفصل السادس عشر

أفاق تومي من إغمائه تدريجياً بعد تلك الضربة التي تلقاها على رأسه حين كان واقفاً يسترق السمع إلى الحديث الذي كان يدور بين جماعة المتآمرين في تلك الغرفة الموصدة في أحد بيوت حي سوهو، وانجلت غشاوة الظلمات عن ذهنه وتذكر كل شيء، وسمع إلى جانبه صوتاً عرف فيه صوت رئيس الجماعة وهو يقول: لقد بدأ صاحبنا يستفيق.

وأقبل الرئيس إلى الفريسة وقدم إليه شراباً فأفرغه في جوفه على الفور، فأحس بذهنه يصفو وينتعش، فقال له الرئيس: أنت حسن الحظ لأن ضربة كونراد كانت كفيلة بأن ترديك ميتاً.

ثم أشار إلى رجل يقف بجانب الفراش، وما كان هذا الرجل إلا البواب الذي فتح له باب البيت، فغمغم تومي بصوت ضعيف يشيع فيه الوهن: وأنت حسن الحظ يا كونراد أيضاً، فلو أنني فطنتُ إليك وأنت تقترب مني لسددت إليك ضربة كانت كفيلة بأن ترديك جثة هامدة.

فقال الرئيس: ألديك شيء تُفضي به إلينا قبل أن نقتلك باعتبارك جاسوساً؟

- طبعاً لديّ الكثير مما يمكن أن يقال.

- أتنكر أنك كنت تتجسس عند الباب؟

- ولماذا أنكر. لقد كان الحديث طريفاً مسلياً.

- اذكر كيف تسللت إلى البيت؟

- ومن زعم أنني تسللت؟ لقد دخلت بكل وضوح والفضل لصاحبكم كونراد هذا، وكان أولى بكم أن تختاروا لبابكم كلب حراسة.

حملق الحاضرون جميعاً إلى كونراد، فهتف كونراد حانقاً: لقد أدلى إليّ بكلمة السر.

فقال تومي: أرجوكم لا تلوموه. أنا أعرف كلمة السر التي لا تُوصَد أمامها الأبواب، وشكراً له على أية حال فقد أتاح لكم أن تتشرفوا بمعرفتي وأن أراكم وأسمع حديثكم.

فقال الرئيس: الأموات لا يتكلمون.

كان تومي يتكلم باستخفاف ليبث في نفوسهم أنه لا يخافهم ولا يخشى بأسهم، وكانوا جميعاً في عجب من سلوكه يتساءلون: هل يتوقع نجدة تسرع إلى إنقاذه؟

- ولكنك عاجلاً ستموت.

- هذا ما لا أتوقعه.

فضحك الرئيس قائلاً: حقاً؟ ولماذا تعتقد أننا لن نقتلك؟

- لأسباب عديدة: أهمها أنكم تريدون أن تعرفوا مني ما

أعرفه عنكم، ولأنكم لم تبادروا إلى قتلي وأنا مغمى عليّ غائب عن الوعي.

فانبرى بوريس يقول: أيها الجاسوس الحقير! فلنقتله في الحال.

وأمّن الحاضرون على قوله فأومأ الرئيس بيده قائلاً: هل سمعت؟ ما قولك في هذا؟

كان تومي خائفاً وكان يعرف أن الموت مصيره، ومع ذلك فلم تتركه سمات الاستخفاف وعدم المبالاة. وقال: وما قولكم أنتم في دخولي إلى هنا؟ لم تسألوا كيف دخلت؟ ألم يخطر لكم أن تسألوا عن الكيفية التي عرفتُ بها كلمة السر؟ فكّروا أيها السادة وافتحوا عيونكم، امسحوا هذا الصدأ الذي يغشى عقولكم.

لقد أراد بهذه الكلمات أن يزرع بذور الشك في نفوسهم فيظنوا أن من بينهم واشياً خائناً. وقد نجح في بلوغ هدفه فأخذوا يتبادلون نظرات الشك والريبة وسرت بينهم همهمة خافتة، ثم قال الرئيس: أتريد أن تقول إن بيننا خائناً؟

ابتسم تومي ولم يقل شيئاً، وانبرى بوريس يقول: اقتلوه، اقتلوه.

فقال تومي بكلمات بطيئة متمهلة: ولماذا تريد أن تعجل بقتلي يا بوريس؟ ما الذي تخشاه من بقائي حياً؟

فاستقرت نظراتهم المستريبة على وجه بوريس، وبدا تومي معجباً بنفسه وبخطته وتمنى لو أن كواتسو كانت حاضرة لترى

بنفسها مدى دهائه.

صرخ بوريس: الويل لك أيها الجاسوس الحقير!

فقال تومي بغير اكتراث: هدّد وتوعد كما تشاء، فأنتم لن تجسروا على قتلي.

فتساءل الرئيس: وما الذي يجعلك واثقاً إلى هذا الحد؟

- لأن لديّ معلومات تهمكم إلى الدرجة القصوى، ولذلك ستعرضون عليّ صفقة تفيدكم وتفيدني، صفقة مبادلة.

- مبادلة أيّ شيء؟

- حياتي وحريتي مقابل...

وأمسك عن إتمام عبارته فنظروا إليه متشوقين، فقال مستطرداً: حياتي وحريتي مقابل الأوراق التي كانت مع دانفيرس في الباخرة الباسيفيك.

وكان لكلماته وقع الصاعقة عليهم وبدوا ذاهلين، ثم سأله الرئيس: أهي في حوزتك؟

فهز رأسه سلباً وقال: ولكنني أعرف كيف أعثر عليها.

فلوح الرئيس بيده ساخراً وهو يقول: أهذا كل ما لديك؟

- لا تسخر، فهي فكرة قائمة على حقائق ثابتة لا يعرفها أحد سواي، ومع ذلك فما الذي ستخسرونه، فأنا إن لم أقدم إليكم الأوراق كان لكم أن تقتلوني.

فقال الرئيس: وإذا رفضنا هذا العرض؟

قال تومي: لا تنسوا أنه لم يبقَ على يوم ٢٩ إلا أسبوعان.

فتريث الرئيس برهة مفكراً ثم أشار إلى كونراد قائلاً: اذهب به إلى الغرفة الأخرى.

وانفردوا بأنفسهم يتداولون، ثم استدعوه إليهم وبادره الرئيس بقوله: نحن موافقون على العرض الذي تقدمت به إلينا، ولكن بشرط: بعد أن تقدم إلينا الأوراق نطلق سراحك.

فقال تومي بمرح: يالللغباء! كيف أبحث عن الأوراق وأنا سجين هنا؟ يجب أن تطلقوا سراحي أولاً.

- نفرج عنك فتفر هارباً ولا تأتينا بالأوراق.

- أقيموا عليّ حارساً يترصد خطواتي حيث أذهب.

فقال الرئيس: بل لدينا اقتراح أفضل. يمكنك أن تعهد إلى أحدنا بالبحث عن الأوراق طبقاً لتوجيهاتك وإرشاداتك، فإذا عثر عليها أفرجنا عنك في الحال.

فقال تومي: هذه مسألة تحتاج إلى لباقة ودهاء، ومندوبكم كفيل بأن يفسد الأمر إن تولاه بنفسه.

فضرب الرئيس المنضدة بيده قائلاً: تلك هي شروطنا، وإلا فالموت مصيرك.

ففكر تومي برهة ثم قال: ليكن. لقد قبِلت، ولكن يجب أن أقابل الفتاة أولاً.

- أية فتاة؟

- جين فين طبعاً.

فقال الرئيس: إنها عاجزة عن أن تجيب على أيّ سؤال.

- لا أهمية لهذا. حسبي أن أدرس وجهها وما يطرأ عليه من تغيرات.

فقال الرئيس: سنفكر في مطلبك هذا، وشخص واحد هو الذي يستطيع أن يبتّ فيه.

فقال تومي: أتعني السيد براون؟

فأومأ الرئيس إيجاباً، فتساءل تومي: وهل سأقابله؟

- ربما، من يدري؟ والآن اصعد به يا كونراد إلى أعلى.

وصعدوا به إلى غرفة الطابق العلوي، غير أنها كانت ذات جدران صماء ليست بها نافذة واحدة.

جلس تومي على الفراش يفكر في مصيره. تُرى هل تنجح خطته فينزلقون وراء الخدعة التي نسجها من محض خياله؟

* * *

الفصل السابع عشر

ما إن ارتمى تومي على الفراش حتى غرق في نوم عميق لم يستيقظ منه إلا في صباح اليوم التالي على صرير المفتاح، وفُتح الباب فلمح شبحاً لم يتبينه وهو يقترب من المنضدة وينير مصباحاً يُضاء بالنفط، فلم تكن الغرفة مزودة بالنور الكهربائي. كان الشبح فتاة ذات شعر ذهبي وعينين خضراوين، فوقع في روعه أنهم وافقوا على مطلبه وبعثوا إليه بجين فين فسألها: هل أنتِ جين فين؟

فأجابت: لا يا سيدي، أنا أدعى جانيت.

وكان ردها عليه بالفرنسية، وإن كان حديثه بالإنكليزية. فسألها بالفرنسية: هل أنت فرنسية؟

فردّت بإيجاب وسألته: هل تتكلم الفرنسية يا سيدي؟

- إلى حدٍ ما، وإن كنت لا أجيدها.

ثم أشارت إلى الصينية التي جاءت بها وقالت: لقد جئتُك بطعام الفطور يا سيدي.

فشكرها تومي وقال لها: لحظة واحدة يا جانيت. ما الذي

تفعلينه هنا؟

فأجابت: أنا أقوم بالأعمال المنزلية.

- أما سمعتِ قط باسم جين فين؟

- لقد سمعتُ بعض الزائرين يرددون هذا الاسم.

- ألا تعرفين أين تقيم؟

- لا أعرف، فأنا لم أقابلها قط. على أية حال هي لا تقيم في هذا البيت.

ثم خرجت وأوصدت الباب من الخارج بالمفتاح. وقال تومي في نفسه: سمات الإجرام لا تلوح على وجه هذه الفتاة فعسى أن تساعدني على الهرب.

وحلّ المساء، وترك تومي مرحه واستخفافه وعلا سحنتَه الوجوم، فقد أصبح موقناً من مصيره، فإما أن يهرب أو يموت. ودار ببصره في أرجاء الغرفة يبحث عن شيء يصلح سلاحاً يهاجم به غريمه كونراد إذا حضر لمقابلته، ولكن لم يكن في الغرفة الجرداء إلا المقعد الموضوع أمام المائدة وتلك اللوحات المعلقة على الجدران. وكانت أربع لوحات منقولة عن مشاهد رواية فاوست: إحداها تمثل مرغريت ممسكة بصندوق جواهرها، والثانية تمثل الكنيسة، والثالثة صورة سيبيل مع الزهور، أما الرابعة فصورة الشيطان مع فاوست وعيناه تشعان نظرة جهنمية، فقال في نفسه: هذه الصورة لها إطار سميك، فهي تصلح سلاحاً أصرع به كونراد عند دخوله الغرفة.

ثم نزع الصورة من مكانها وأخفاها وراء الباب ومضى

يترقب قدوم كونراد في ساعة العشاء. وأخيراً سمع صرير المفتاح في القفل، فوقف بقرب الباب متأهباً للانقضاض على غريمه. وُفتح الباب، وكانت القادمة هي جانيت وقد جاءت وحدها تحمل إليه طعام العشاء، فقال لها تومي: أغلقي الباب فأنا أريد أن أتحدث إليك.

أطاعته بغير تردد وأوصدت الباب. قال لها: جانيت، أنا أتوسل إليكِ أن تساعديني على الخروج من هذا السجن.

- هذا مستحيل، أنت لن تستطيع أن تفلت منهم فهم ثلاثة في هذا البيت.

فقال لها: إنهم ثلاثة من الأشرار الملاعين، فإذا أنت ساعدتني على الهرب صحبتُك معي وأنقذتك منهم.

فغمغمت: لا يا سيدي، أنا لا أستطيع.

وهمّت بأن تستدير منصرفة فهتف بها تومي: لحظة واحدة يا جانيت، يجب أن تساعديني على إنقاذ فتاة، فتاة شابة في مثل سنك يجب أن أنتشلها من بين مخالبهم.

- أتعني هذه الفتاة المدعوة جين فين؟

فقال تومي متسائلاً: أتعرفين شيئاً عنها؟

- لا، أنا لا أعرف إلا اسمها.

ومشت إلى الباب لتنصرف، وفجأة أطلقت صرخة مدوية، وكان بصرها قد استقرّ على صورة فاوست والشيطان التي نزعها تومي من الجدار وأسندها وراء الباب، فاستبد بها رعب شديد

وأطلقت تلك الصرخة. ترى ما الذي أفزعها؟ هل تبادر إلى ذهنها أنه ينوي أن يعتدي عليها بضربها بهذه اللوحة؟ فبادر إلى الصورة يعيدها إلى موضعها وراء الجدار، فقد كان في مسيس الحاجة إلى عونها ومن الحماقة أن يثير مخاوفها.

* * *

في مساء الليلة الثالثة فُتح الباب ودخل كونراد يصحبه رقم ١٤، فراود تومي الشعور بالخوف، وقال له كونراد مزمجراً: لقد انتهَت اللعبة أيها المحتال. أتريد أن نمنحك الحرية والحياة مقابل أوراق لا تعرف عنها شيئاً؟ لقد انكشفت خدعتك فأنت لا تعرف شيئاً عن تلك الأوراق.

ثم اقترب منه كونراد وتناول حبلاً من جيبه ومضى يشد وثاقه، فقال له تومي: وما الداعي لهذا؟ إن رقم ١٤ يستطيع أن يجز عنقي بسهولة وأنا مُطلَق اليدين دون حاجة إلى تقييدي.

فقال كونراد مزمجراً: وهل تحسب أيها الغبي أننا سنقتلك هنا حتى نخلف أثراً يهدي الشرطة إلينا؟ سننقلك غداً إلى مكان آخَر من مخابئنا الخفية، وهناك تزهق روحك. على أننا لن نعيدك إلى فندق ريتز على أية حال.

ودُهش تومي لهذه الكلمات. إذن فقد اكتشف السيد براون شخصيته الحقيقية، فكيف تسنى له ذلك؟ ثم انصرف الرجلان بعد أن تركاه فوق الفراش موثق القياد، وبعد ساعة دار المفتاح في ثقب القفل للمرة الثانية ودخلت جانيت، فلاحقها من الخارج صوت كونراد يصيح بها: لا عشاء له الليلة يا جانيت فاخرجي من الغرفة.

فأجابت: أعرف هذا، ولكنني أردت أن أستعيد صينية الغداء فأنا في حاجة إليها.

فزمجر كونراد: إذن أسرعي.

أسرعت الفتاة إلى المنضدة فأطفأت مصباح النفط، ثم اقتربت من تومي وتحسست يده المشدودة الوثاق ثم دفعت إليها بمطواة مفتوحة النصل وهمست: اقطع القيود وتأهب للهرب، بمجرّد أن يدخل عليك تخلص منه واهرب.

ثم بادرت تغادر الغرفة مسرعة وأغلقتها بالمفتاح. ولبث تومي بعد انصرافها مشدوهاً مذهولاً، ولكنه لم يتوانَ لحظة عن قطع الحبل المشدود إلى يديه وساقيه. وتتابعت ساعات الليل، وأخيراً فُتح الباب، وعلى الضوء الخافت المنبعث من الدهليز تراءى شبح الرجل رقم ١٤ داخلاً الغرفة وفي أعقابه كونراد. وتريث تومي لحظة، ثم رفع اللوحة وهوى بها بكل قوته على رأس رقم ١٤ في الوقت الذي كان فيه كونراد يهمّ بإشعال المصباح، وفي اللحظة التي كان فيها رقم ١٤ يهوي إلى الأرض كان تومي قد وثب إلى الخارج، وقد استطاع أن يغلق الباب بالمفتاح من الخارج ثم وضع المفتاح في جيبه. وارتفع صوت الرئيس من أسفل متسائلاً: ما هذه الضجة يا كونراد؟

ورأى جانيت إلى جانبه وإصبعها فوق شفتيها تنذره بالسكوت، ثم قادته إلى ناحية درَج صغير في أقصى الدهليز ينتهي إلى مخزن معلق بين الطابقين وهمست به: اصعد، أسرع.

فأسرع تومي يرتقي الدرَج وجانيت في أعقابه ثم قالت له:

اختبئ هنا.

وأخذ كونراد يضرب الباب بقبضته مستنجداً، وعلى أثر الضجة صعد الرئيس ومعه رجل آخر وراحا يدفعان الباب، فهمست جانيت: الرئيس يعتقد أنك ما زلت بالداخل وأنك وكونراد تتعاركان وتتضاربان. هل المفتاح معك؟

فأخرج المفتاح من جيبه وناوله لها، وأدهشه أن رآها تأخذ من ركن المخزن حبلاً طويلاً وتربطه حول خزانة صغيرة، ثم ناولته طرف الحبل وهي تقول: والآن تعالَ معي واختبئ تحت قبو الدرَج واجعل طرف الحبل في يدك، وبمجرّد أن أخرجهم من الغرفة اجذب الحبل بشدة فتقع الخزانة ويتهشم ما فيها من أوان، فإذا ما صعدوا إلى المخزن لاستطلاع أسباب الضجة تكون أنت قد أسرعت بالهرب إلى الخارج.

- لا بد أن تأتي معي.

فقالت باقتضاب: سألحق بك.

ثم غادرا المخزن معاً، واختبأ تومي تحت الدرَج وتركته جانيت ومضت إلى الرئيس وسمعها تقول: ما هذا الصياح؟ ما الذي جرى؟

فردّ عليها الرئيس: ألا تعرفين أين مفتاح الغرفة؟

فأجابت: ها هو معي.

وناولته المفتاح ففتح الباب وخرج كونراد ثائراً، أما رقم ١٤ فكان لا يزال غائباً عن الوعي. وطبقا لتعليمات جانيت جذب تومي الحبل المشدود إلى الخزانة بكل قوته فوقعت

الخزانة وتهشمت الأواني وسمعوا الضجة، فهرعوا صاعدين إلى المخزن المعلق، وعندها لم يتردد تومي لحظة واحدة، فقد اجتاز الدهليز وثباً وراح يهبط الدرَج حتى انتهى إلى الطابق الأرضي، ثم تريث هناك وراح ينتظر جانيت، ولكنها لم تأت بل سمعها تصرخ: يا إلهي! لقد اختفى، لقد هرب!

فأدرك تومي أنها بصرختها تريد أن تحثه على مواصلة الفرار وحده دون أن ينتظرها، ثم سمع صوتها مرة أخرى يصيح: لا أريد أن أبقى لحظة واحدة في هذا البيت الملعون. أريد أن أعود إلى مرغريت، اذهبوا بي إلى مرغريت.

ولم يجد تومي مناصاً من متابعة الفرار، فقد سمع وقع أقدامهم في إثره. ولحق به كونراد فعاجله بلكمة ألقته على الأرض صريعاً، ثم سمع دويّ طلق ناري في أعقابه، ولكن الرصاصة لم تصبه إذ كان قد بلغ الباب الخارجي ففتحه ودلف منه إلى الخارج وهو يركض بأقصى ما تستطيع قدماه أن تحملاه حتى أفلت منهم.

* * *

وصل إلى أحد المطاعم حيث تناول إفطاراً دسماً وهو يتصفح إحدى صحف الصباح، وفجأة حملق في الصحيفة مذهولاً، فقد كانت أمام عينيه صورة لعضو العصابة رقم واحد وقد كُتب تحتها «السيد كارامين أحد زعماء اليسار المتطرفين يصل إلى لندن». فالتهم طعامه بسرعة زائدة ثم انطلق إلى مقر الوزارة في هوايتهول فبعث برقية إلى الرجل الذي كان تومي وأصحابه ما زالوا يعرفونه حتى الآن باسم السيد كارتر، وقال

فيها: يؤسفني يا سيدي أن أُضطر إلى مقابلتك هنا؛ فالأمر خطير عاجل.

وروى له بإيجاز ما انتهى إلى أذنيه من حديث أفراد العصابة وهو يسترق السمع على ما دار بينهم، ثم قال: واليوم رأيت صورة السيد كارامين في صحف الصباح فإذا به هو نفسه رقم واحد.

فقال السيد كارتر: لقد كنا نرتاب فيه من قبل وكنا نتابع تحركاته، أما الآخرون فما زلنا نجهل شخصيتهم الحقيقية.

ثم تناول مظروفاً من دُرج مكتبه فأعطاه إليه وهو يقول: افحص هذه الصور، هل تعرف أحد أصحابها؟

وتناول الهاتف فأصدر بعض الأوامر العاجلة ثم قال: والآن هيا بنا إلى ذلك البيت في حي سوهو لنفتشه يا سيد برسفورد، وسيسبقنا رجال الشرطة إليه.

تلقاهما مفتش الشرطة عند الباب فمال إلى السيد كارتر يهمس في أذنه بعض الكلمات، فتحول هذا إلى تومي قائلاً: لقد أفلت العصفور كما توقعت.

ورجع تومي إلى فندق ريتز متشوقاً إلى لقاء كواتسو ليروي لها ما مرّ به من أحداث، ولكن خاب رجاؤه، فقد قيل له إن الآنسة كواتسو غادرت الفندق منذ ربع ساعة.

* * *

الفصل الثامن عشر

جلس تومي برسفورد في مطعم الفندق وطلب طعاماً دسماً شهياً، وحين جاء جوليوس هيرشايمر إلى القاعة ووقع بصره على تومي أقبل عليه هاتفاً: أين كنت يا رجل؟ لقد حسبناك ميتاً.

فضحك تومي وقال: أنا كما ترى أقوى من الموت.

- ولكن أين كواتسو؟ هل قابلتها؟

- لا. لقد قيل لي في الاستعلامات إنها غادرت الفندق منذ فترة وجيزة.

- لقد عدتُ بها إلى الفندق منذ ساعة تقريباً، والآن حدثني بما جرى لك خلال هذه الأيام الأربعة.

روى تومي قصته بتفصيل وإسهاب ثم أردف: والآن حدّثني يا جوليوس بما كان من أحداث في مهمتك.

فأخذ هيرشايمر يسرد حكايته، فقال تومي متسائلاً: ولكن من الذي قتل السيدة فانديمير؟

- لقد قال الطبيب إنها تناولت قدراً يزيد على الكمية

المناسبة من منوم قوي، أما السيد جيمس فظل محتفظاً برأيه شأن رجال القانون.

ثم انتقل هيرشايمر إلى الحديث عن جين فين فقال تومي: جين فين فقدت ذاكرتها، وهذا هو السبب في أنهم ذكروا لي عندما طلبتُ منهم استجوابها أنها لن تخبرني بشيء على الإطلاق. ثم أردف: أتعتقد أن السيدة فانديمير انتحرت؟

- لا أظن، نحن نعتقد أن السيد براون هو الذي قتلها.

- ولكن كيف يستطيع ذلك وليس له أجنحة يدخل بها النافذة أو يخرج؟!

- لا أدري، لعل له قوة مغناطيسية خارقة سلطها عليها فأوحى إليها أن تقتل نفسها.

فقال تومي: هيا بنا نفتش مسكنها، فقد نعثر على أثر يرشدنا إلى الحقيقة.

واستفسرا من مكتب الاستعلامات عن الآنسة كواتسو فعلما أنها لم ترجع بعد، فقال جوليوس: سأصعد إلى جناحي لحظة، فلعلها هناك في انتظاري.

ووقف تومي ينتظر عودة جوليوس وأقبل عليه أحد الخدم فقال له: أنا أعتقد أن كواتسو سافرت يا سيدي.

- سافرت؟ ولكن كيف عرفت؟

- لقد سألَتني أن أحضر لها سيارة أجرة، ثم سمعتها تطلب من السائق أن يذهب بها إلى محطة شيرنج كروس. وقبل ذلك طلبَت مني دفتر مواعيد القطارات بمجرّد أن قرأت البرقية.

- برقية؟ ومتى كان ذلك؟

- نحو الحادية عشرة والنصف يا سيدي. فما كادت تقرأ البرقية حتى طلبت مني أن آتيها بدليل السكك الحديدية، ثم هتفت بي في عجلة: استدع لي سيارة أجرة، أسرع، أرجوك.

وجاء جوليوس فنقل إليه تومي ما سمعه من الخادم، ثم رأى خطاباً في يد جوليوس فسأله: أهذا الخطاب منها؟

فأومأ إيجاباً، فعاد يسأله: هل أشارت فيه إلى وجهتها؟

- لا، لم تقل فيه كلمة واحدة عن اعتزامها السفر.

فاستبدّت الحيرة بتومي وقال: إذن لماذا كتبت إليك؟

فبدا ارتباك قليل على وجه جوليوس وقال: الأَولى بي أن أكون صريحاً معك. لقد عرضتُ عليها أن أتزوجها، وهذا الخطاب يتضمن ردها عليّ.

فغشيت وجه تومي سحابة من الاكتئاب، وفطن جوليوس إلى هذا فبادره بقوله: لقد سألتُها إذا كنتما خطيبين، فلما أجابت بالنفي رأيتُ أن ليس ثمة ما يحول دون التقدم إليها لخطبتها.

فغمغم تومي بصوت خافت فيه رنة من الأسى: دعني أقدم إليك التهنئة.

فقال جوليوس: وعلامَ التهنئة وقد رفضت أن تتزوجني؟

- رفضت! ما هذا الذي تقول؟

ودفع إليه جوليوس بالخطاب وكان هذا نصه: عزيزي جوليوس، من المستحيل عليّ أن أفكر في الزواج قبل رجوع

تومي، فلنطرح هذا الموضوع جانباً ولا نفكر فيه في الوقت الحاضر. كواتسو.

وأشرق وجه تومي وهو يعيد الخطاب إلى صاحبه، وإن راودته بعض الهواجس؛ فهي لم ترفض رفضاً قاطعاً بل أرجأت الأمر إلى حين عودة تومي. قال تومي: والآن هيا بنا إلى غرفتها، فقد نجد البرقية التي تلقتها فحملتها على المبادرة إلى السفر.

وفعلاً كانت البرقية هناك، في سلة المهملات وكان هذا نصها: «احضري حالاً. فيلا موتي إيبري، يور كشير، أحداث خطيرة. تومي».

فتبادل الشابان نظرات ذاهلة، وكان جوليوس هو أول من تكلم فقال: طبعاً أنت لم تبعث إليها بهذه البرقية؟

- لا. أنا لا أعرف شيئاً عنها، فما معنى هذا؟

- المعنى جلي واضح، إنه كمين نُصب لها.

فهتف تومي: يا إلهي! وما العمل الآن؟

- نبادر إلى اللحاق بها.

وحمل إليهما خادم الفندق دليل القطارات، فتفحصاه وقال جوليوس: لقد استقلّت قطار الساعة ١٢ و٥٠ دقيقة، وليس أمامنا إلا قطار الساعة ٣ و٢٠ دقيقة وبذلك تكون قد سبقتنا بثلاث ساعات.

- يا إلهي! هذه فجوة طويلة بيننا.

* * *

بعد نصف ساعة كانا في المحطة يستقلان القطار. قال جوليوس متسائلاً: ولكن ما الذي دعاهم إلى اختطافها؟

فأجاب تومي: ليحجزوها لديهم رهينة يهددوننا بها، فإذا نحن وقعنا على معلومات ذات شأن هددونا بإنزال الأذى بها فنضطر إلى أن نُلجم ألسنتنا.

وصلا أخيراً إلى محطة إيبري وسألا عامل التذاكر: أتعرف فيلا موي؟

- أعرفها طبعاً.

- هل نزلت في المحطة من القطار الساعة ١٢ و٥٠ دقيقة فتاة ذات شعر أسود استفسرت منك عن فيلا موي؟

فأجاب عامل التذاكر بأن هذا لم يحدث وأنه لا يذكر أن فتاة غادرت هذا القطار، لا سوداء الشعر ولا شقراء.

فاستقلا إحدى المركبات وطلبا من الحوذي أن يذهب بهما إلى فيلا موي. كانت الفيلاّ تقع عند شاطئ البحر في بقعة بعيدة معزولة عن المساكن والعمران، وكانت عتبة البيت قذرة يعلوها الغبار مما يوحي بأن أحداً لا يمكن أن يكون قد تخطاها منذ فترة وجيزة. وضغط جوليوس الجرس مرة بعد مرة ولكن دون أن يلبي أحدٌ النداء، فقال: يحسن بنا أن نعود إلى البلدة لنقوم بالاستفسار فلعل أحداً رآها وهي تتجه إلى الفيلاّ.

ولكن لم يكن هناك مَن شاهد فتاة تسير في الطريق إلى فيلا موي. وقال لهما أحد العمال: عليكما بسؤال السيدة أسويني فهي التي تحتفظ لديها بمفتاح الفيلاّ.

ولكن السيدة أسويني أكدت لهما أن المفتاح لم يُطلب منذ شهور، فعجبا للأمر واستبدّ بهما القلق. ثم عادا مرة أخرى إلى البيت يطوفون في حديقته، فقال تومي: إن المدخل مغطى بطبقات من التراب وليس به أثر لأيّ قدم.

فقال جوليوس: فلنقضِ ليلتنا في أحد فنادق القرية، على أن نعود في الصباح فنواصلَ البحث في ضوء النهار.

وعادا في صباح اليوم التالي يبحثان وينقّبان، وفجأة هتف تومي وهو ينحني إلى الأرض: ما هذا؟

وتناول شيئاً أراه لجوليوس وهو يقول: هذا الدبوس ملك كواتسو.

- أمتأكد أنت؟

- كل التأكد، فقد رأيتها مراراً تعلقه على ثوبها.

- إذن فما من شك في أنها جاءت إلى الفيلاّ. أليس من العجيب أن أحداً من أهل البلدة لم يلمحها؟!

- إذن فلنعُد إلى القرية ولنعاود الاستفسار والتحري.

وطافا بالقرية يسألان الأطفال والعجائز من النساء، كما أخذا يستفسران من جميع سائقي المركبات وسيارات الأجرة، ولكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح وبدا كأن الفتاة قد تلاشت في الهواء. قال تومي: يجدر بنا أن نعود إلى لندن على الفور.

فقال جوليوس: صدقت، فمثل هذا البحث ليس من شأننا. علينا أن نبادر إلى إبلاغ الشرطة، وسوف أرصد مكافأة كبيرة لأيّ

شرطي يُدلي إلينا بمعلومات مفيدة عن الآنسة كواتسو.

قال تومي: أما أنا فسأبقى في القرية أياماً أخرى، فلعلي أصل إلى شيء.

فقال جوليوس: ليكُن، أما أنا فعائد من فوري إلى لندن، وسأبعث إليك باثنين من رجال الشرطة السريين.

ولكن في نفس اليوم تلقى تومي برقية من جوليوس يقول فيها: «قابلني في مانشستر في فندق ميلاند، أنباء جديدة هامة. جوليوس».

وفي السابعة والنصف مساء نزل تومي من القطار فوجد جوليوس في انتظاره على رصيف المحطة فسأله: هل عثرت على الآنسة كواتسو؟

فأجاب: لا، ولكنني وجدت هذه البرقية في انتظاري في فندق ريتز عند عودتي إلى لندن.

وكان هذا نصها: «لقد عثرنا على جين فين. احضر حالاً إلى فندق ميلاند في مانشستر. جيمس إدغارتون».

ثم استردّ جوليوس البرقية ووضعها في جيبه وهو يقول: وأنا الذي ظننت أن السيد جيمس لم يعد يهتم بالموضوع!

* * *

الفصل التاسع عشر

كان السيد جيمس إدغارتون في انتظار جوليوس في فندق ميلاند، فقدّم إليه هذا تومي برسفورد، فرحّب به السيد جيمس بحرارة وقال: لقد طالما سمعت الآنسة كواتسو تتحدث عنك حتى ليخيل إليّ أنني أعرفك من قبل.

ثم تساءل جوليوس: كيف عثرتم على جين فين؟ وأين كان ذلك؟

ابتسم السيد جيمس بهدوء وقال: ألا يكفيك أننا عثرنا عليها؟

فهتف جوليوس: ولكن أين هي؟ أين ابنة عمي؟ لماذا لم تحضرها معك؟

- لأن حضورها مستحيل، فقد أُصيبت في حادث سيارة ونُقلت إلى مركز الإسعاف، وحين بلغني النبأ أمرت بنقلها إلى مستشفى أحد كبار الأطباء من أصدقائي ولكنها ما زالت في غيبوبة.

- وهل أصابتها خطيرة يا ترى؟

- لا، مجرّد جرح سطحي، وقد أكد الطبيب أن ذاكرتها عادت إليها بسبب الصدمة التي تلقتها.

فهتف جوليوس بابتهاج: أحقاً عادت إليها ذاكرتها؟

- طبعاً، فقد ذكرت اسمها الحقيقي قبل أن يُغمى عليها. قالت إنها جين فين.

قال جوليوس: بعد العشاء سأذهب لزيارة ابنة عمي.

فقال السيد جيمس: هذا مستحيل، بل سنذهب إليها غداً نحو العاشرة صباحاً لأن الدخول الآن غير مسموح به.

فقال جوليوس بعناد وإصرار: لي وسائلي الخاصة وأعرف كيف أجعلهم يخرجون على قواعدهم.

فلم يزد السيد جيمس على أن قال: بل غداً صباحاً.

فاضطر جوليوس إلى أن ينصاع مذعناً، فقد كان لا يعرف عنوان الطبيب ولا حتى اسمه. ثم التفت السيد جيمس إلى تومي قائلاً: لقد أدهشني أن أراك الليلة هنا يا برسفورد، فقد كان صديقاك شديدَي القلق عندما أخبراني أنك اختفيت فجأة دون أن تخطرهما بمكانك.

فأجاب تومي باسماً: كان هذا رغماً عني، فقد وقعت في كمين.

وتلبية لطلب السيد جيمس أخذ تومي يسرد عليه الأحداث التي وقعت في بيت العصابة في حي سوهو، فقال السيد جيمس يثني على تومي وقد فرغ من قصته: الحق أنك فتى شجاع.

- ولكنني ما كنت لأنجو بحياتي وحريتي لولا أن أسرعت هذه الفتاة جانيت إلى نجدتي.

- هذا صحيح، وعلى ما يبدو أن هذه الفتاة عضو في العصابة.

- هذا هو ما أعتقده يا سيدي.

ثم استطرد تومي يقول: لقد غاب عني أن أحدثك بما كان من أمر كواتسو.

- وماذا بشأنها؟

- لقد اختفت يا سيدي.

ثم روى له حكاية البرقية المدسوسة المزورة التي تلقتها كواتسو فسافرت على إثرها إلى فيلا موتي، فقال السيد جيمس: إذن فقد اتخذوها رهينة ليلجموا لسانك وليجبروك على الصمت؟

- هذا ما خطر لي يا سيد جيمس.

- إذن فاطمئن إلى أنهم لن يلحقوا بها أذى ما دُمتَ لائذاً بالصمت. وبالمناسبة يجب أن لا يعرفوا أننا عثرنا على جين فين وأنها قد استعادت ذاكرتها.

فقال تومي: من يدري؟ إن هذا الرجل السيد براون شيطان في صورة إنسان.

فأطلق جوليوس ضحكة ساخرة، فسأله السيد جيمس: ألا تؤمن بوجود السيد براون؟

- أنا لا أعتقد أنه موجود، فهو مجرّد شخصية خرافية ابتُدعت لتضليل الشرطة. أنا أعتقد أن الرئيس الحقيقي هو ذلك الفوضوي المدعو كارامين، أما هوايتنغ فلعله رئيس الشعبة الإنكليزية من هذه العصابة.

* * *

في العاشرة من صباح اليوم التالي التقى الرجال الثلاثة للمرة الثانية، ثم ذهبوا إلى المستشفى الذي تعالَج فيه جين فين من إصابتها في حادث السيارة. وقد قام السيد جيمس بتقديم صاحبيه إلى الطبيب ثم سأله عن حالة الفتاة فأجاب: إنها بخير الآن، وقد استعادت ذاكرتها كما سبق أن قلتُ لك، ولكن من الواضح أنها لا تعي مرور الزمن وأن السنوات الثلاث التي مرت بها قد مُحيت من ذاكرتها، فقد سألت هذا الصباح عن عدد الركاب الذين غرقوا وهل غرق أحد من قوارب النجاة؟

فقال السيد جيمس: أيمكن أن تأذن لنا بمقابلتها؟

- بكل تأكيد.

ثم قادهم الطبيب إلى غرفة المريضة، وكان تومي يسير وراءه سعيداً مغتبطاً، فأخيراً عثروا على جين. وفتح الطبيب باباً ودعاهم إلى الدخول، ثم استأذن منهم وانصرف إلى شأنه. وعلى السرير الأبيض كانت ترقد فتاة جميلة رأسها معصوب بالأربطة والضمادات، وقد أخذت الفتاة تنظر إلى الزائرين بعينين ذاهلتين، فقال السيد جيمس وكان أول من تكلم: آنسة فين، هذا هو ابن عمك السيد جوليوس هيرشايمر.

وحين مد إليها يده ليصافحها تخضب وجهها احمراراً، فقال لها بأسلوبه المرح: كيف حالك يا ابنة العم العزيزة؟

فقالت الفتاة بدهشة: أأنت حقاً ابن العم هير؟

- نعم، وإلا فمن أكون سواه؟

فاستطردت جين فين: كثيراً ما قرأتُ اسمه في الصحف. لقد كانت أمي على يقين من أنه لن يصالحها ولن يصفح عنها أبداً.

قال جوليوس: تلك صفحة طُويت وانقضت، فلنطرح وراءنا تلك المشاحنات العائلية ولننسها، فقد حزمتُ أمري مذ مات أبي على أن أبحث عنك وأعثر عليك.

فقالت الفتاة: لقد مرّت بي سنوات لا أذكر عنها شيئاً، سنوات ضائعة لا حساب لها في العمر.

- ما الذي تذكرينه يا جين عن غرق الباخرة الباسيفيك؟

- كل ما أذكره عنها اجتماعنا على ظهر الباخرة ونزولنا في قوارب النجاة.

- وماذا بعد ذلك؟

- لا شيء على الإطلاق.

مال إليها جوليوس قائلاً بهدوء: جين، هناك شيء هام نريد أن نسألك عنه، فهل تذكرينه يا ترى؟ كان على ظهر الباسيفيك رجل معه وثائق هامة، ويعتقد بعضهم أنه عهد إليكِ بهذه الوثائق قُبيل غرق الباخرة، فهل هذا صحيح؟

فغشيت وجهَها مسحة من التردد، ثم نقلت بصرها بين الرجلين الآخرين، فأدرك جوليوس ما ترمي إليه فقال: السيد برسفورد مفوض من الحكومة الإنكليزية بالبحث عن هذه الأوراق، أما السيد جيمس إدغارتون فهو عضو في البرلمان وإليه يرجع الفضل في عثورنا عليك. فيمكنكِ أن تتكلمي أمامهما دون حرج أو تردد. هل عهد إليكِ دانفيرس بتلك الوثائق؟

فأجابت: نعم، وقد برّر هذا بأن أمام النساء والأطفال فرصة أكبر للنجاة لأنهم يغادرون الباخرة قبل الرجال.

قال جوليوس هيرشايمر: هل يمكن أن تعيدي إلينا تلك الأوراق؟

فأجابت: لا.

فقال جوليوس بدهشة: ولِمَ لا؟

- لأنها ليست معي. لقد خبأتها في مكان سري. فبعد نجاتي من الغرق وقبل أن أفقد ذاكرتي وجدتُ الوثيقة في جيبي مختومة بالشمع الأحمر ومؤشَّر عليها «سري جداً» ومكتوب عليها «تُسلَّم إلى وزارة الخارجية»، وشعرت أن هناك من يتجسس عليّ ويتعقب خطواتي، فما كان مني إلا أن أودعتها مخبأ سرياً في جزيرة هولد هيد حيث رسا بي قارب النجاة.

فسألها جوليوس: هل يمكن أن تصفي لنا هذا المخبأ؟ نحن في حاجة إلى الأوراق، وما دام الطبيب مضطراً إلى استبقائك حتى تُشفي من إصابتك فنحن نستطيع أن نبادر إلى المخبأ ونستعيدها.

فقالت: إلى يسار مرسى البواخر طريق ضيق متفرع من الطريق العام، وفي أقصى الطريق الفرعي صخور ضخمة على شكل كلب يقف على قائمتيه الخلفيتين، وفي هذه الصخرة فجوة عميقة وضعتُ فيها اللفافة ثم سددت مدخل الفجوة بالطين والأحجار.

- ألم يتبعك أحد إلى هذه الصخرة؟

- لم يتبعني أحد، فقد كان المكان مكشوفاً لا يستطيع أن يسير فيه إنسان إلا رأيته.

ثم استطردت: وبعد أن اطمأننت إلى سلامة الوثيقة عُدت إلى القرية فركبت القطار. وكان في مقصورتي رجل وامرأة يجلسان أمامي فجعلا يرمقانني بنظرة فاحصة ويتهامسان، وعندما قمتُ إلى الردهة قالت لي المرأة: "لقد وقع منك شيء يا آنسة"، فلما انحنيت لأتبيّن ما سقط مني بادرني الرجل بضربة على رأسي أفقدتني الوعي، ولم أفق إلا وأنا على سريري في المستشفى وقد فقدت ذاكرتي، فلم أعد أذكر شيئاً عن الماضي أو عن الوثيقة طبعاً.

فقال جوليوس بحماسة وانفعال: اطمئني بالاً يا ابنة العم العزيزة، فسوف نأتي بالأوراق من مخبئها في هولي هيد ونسلمها إلى ذوي الشأن في لندن، ثم أوافيك هنا فنسافر معاً إلى أمريكا حيث أمنحك جزءاً من ثروتي فتعيشين في رخاء وتنسين ما مر بك من أهوال.

* * *

الفصل العشرون

عقد الرجال الثلاثة مجلس حرب عند باب المستشفى ومضوا يتداولون في الخطة المستقبلية، ثم نظر السيد جيمس إلى ساعته وقال: المراكب الصغيرة التي تنقل المسافرين إلى هولي هيد ترسو في شيستر في الساعة ١٢ و١٤ دقيقة، فإذا أسرعتما استطعتما أن تلحقا بها.

- وأنتَ يا سيدي. ألا تنوي أن تصحبنا؟

- كنت أود ذلك، ولكنني مضطر إلى العودة إلى لندن في الحال. أنا آسف جداً.

فقال جوليوس: يبدو أن مهمتنا قد كُللت بالنجاح؛ فالعثور على المخبأ أمر هين لا صعوبة فيه، فهو مجرّد لعبة أطفال.

قال السيد جيمس بتؤدة ورزانة: أنت ما زلت شاباً في عنفوان حماسك يا سيد هيرشايمر، ولكن لو أنك كنت في مثل سني ولك خبرتي لما تهاونت قط في تقدير غريمك ولما استهنت بأمره.

فقال جوليوس مستخفّاً: أتريد أن تقول إن السيد براون قد يفاجئنا عند الصخرة وينتزع الأوراق؟ ثم استطرد يقول: ومع

ذلك فكيف يعرف السيد براون سر المخبأ؟

فقال السيد جيمس ببساطة: وهل نسيت أنه استطاع أن يعرف أن السيدة فانديمير تنوي الغدر به فاغتالها، رغم أنها لم تتحدث في هذا الأمر إلا مع الآنسة كواتسو وحدها؟

ثم استطرد السيد جيمس: لقد أردتُ فقط أن أحذّركما لتأخذا الحيطة الواجبة، وعليكما إذا حاول السيد براون وأعوانه أن يستولوا على الوثيقة أن تبادرا إلى إعدامهما كي لا تقع في أيديهم. والآن إلى اللقاء وحظاً موفقاً.

ولبث الشابان فترة طويلة لا يتبادلان كلمة واحدة، وفجأة قال جوليوس وقد خرجت من صدره تنهيدة خفيفة: ما أغرب الدنيا! تصور أنني حضرت من أمريكا إلى إنكلترا لأبحث عن جين فين وكان في نيتي حين أهتدي إليها أن أبادر إلى الزواج بها في الحال.

فتساءل تومي: أتُراك عدلت عن رأيك؟

- نعم، لقد انهار السراب الذي كنت أتعلق به، فحينما رأيت صورتها لأول مرة تعلق بها قلبي أما الآن...

ثم صمت، فقال تومي: ولكنها في رأيي تبدو جميلة فاتنة.

- وهذا هو رأيي أيضاً، ولكنها مختلفة عن صورتها إلى حد كبير؛ أعني أن في صورتها شيئاً افتقدتُه في شخصها حين رأيتها.

فقال تومي بمرارة: هذا دائماً حال الدنيا، تقع في غرام فتاة

ثم إذا بك تخطب أخرى غيرها.

فعقب جوليوس على هذا بأن قال: ما أحمق الرجال!

وأخيراً بلغ الشابان بلدة شيستر، ولم يكن من العسير عليهما أن يهتديا إلى الممر الضيق المتفرع من الطريق العام، وكان ممراً صغيراً تحف به الأشجار من جانبيه ولا يتسع في بدايته إلا لعربة صغيرة من الطراز الذي يجره جواد واحد، فاستقلاّ إحدى المركبات وطلبا من الحوذي أن يمضي بهما في هذا الطريق الفرعي وأن يسير على مهل، وقد أخذا يلقيان البصر على ما حولهما باحثَين عن تلك الصخرة التي حدثتهما عنها جين فين، صخرة تشبه كلباً يقعد على قائمتيه الخلفيتين. ثم ضاق بهما الطريق وتدانت الأشجار وبدأت أغصانها تتشابك فقال الحوذي: يستحيل أن أمضي من هنا؛ فالطريق لم يعُد يتسع للمركبة.

فنزلا من العربة وصرفاها، ثم مضيا يسيران على الأقدام يشقان طريقهما بين الشجيرات. وقد انتهت بهما المسيرة إلى ساحة مكشوفة مليئة بالصخور الضخمة، فوقفا يجيلان البصر هنا وهناك، وفجأة هتف تومي: يا إلهي، أنظر يا جوليوس!

فنظر جوليوس إلى حيث أشار تومي الذي أكمل قائلاً: أجل، هناك على البعد.

لقد كانت الصخرة قائمة تتراءى للأبصار، كانت صخرة عجيبة لها شكل الكلب الذي يقعد على قوائمه الخلفية. فأسرعا إليها راكضين يخامرهما الأمل والرجاء. قال تومي: تُرى هل سنهتدي بسهولة إلى المخبأ الذي في الصخرة؟ وهل نجد بداخله

اللفافة المنشودة؟

- ولِم لا؟ طبعاً سنجدها مكانها.

- هل غاب عنك أن الأولاد دائماً يضعون أيديهم في مثل هذه الشقوق بحثاً عن أعشاش الطيور؟

- ولكن جين فين قالت إنها أغلقت الشق بالطين.

وقفا أمام الصخرة الضخمة يديران فيها أعينهما بحثاً عن الشق المسدود بالطين، وأخيراً استقرت عليه أعينهما، فأخرج جوليوس سكيناً وأزال الطين الصلب المتجمد الذي يسد الفوهة، ثم مد يده وأدخل ذراعه في الشق.

وبعد لحظات همس يقول: لم تصطدم يدي بشيء حتى الآن! لقد انحشرت ذراعي ومن المستحيل أن تمتد أكثر من هذا.

فقال تومي: لعل أحداً عثر على اللفافة.

فقال جوليوس وما زال الأمل يراوده: لعل جين فين وضعت اللفافة في نهاية الشق، فذراعها أرفع من ذراعي.

ثم سحب جوليوس يده، فقال تومي: والآن ما العمل؟ كيف يمكن أن نصل إلى طرف الفجوة؟

وفجأة هتف: آه، لدي فكرة.

ثم أمسك بالسكين، وللمرة الثانية دفع يده داخل الفجوة، وإذا بنصل السكين يصطدم بشيء! فغرز سن النصل في هذا الشيء ثم عاد وسحب ذراعه. وكان هذا الشيء لفافة صغيرة

مختومة بالشمع الأحمر، فوقف الشابان يتأملان اللفافة ذاهلَين فاغرَي الفم. لقد نجحت المهمة وعثرا على المعاهدة السرية ولم تذهب جهودهما هباء.

تناول تومي اللفافة من جوليوس وفض الأختام وفك طيات القماش فانكشفت عن مظروف صغير، ففضّ المظروف وأخرج الورقة التي بداخله، ثم نشر الورقة وألقى عليها نظرة عاجلة، ولكن لم يكن مسطوراً على الورقة إلا جملة واحدة «مع تحيات السيد براون»!

* * *

الفصل الحادي والعشرون

صحا تومي في اليوم التالي شاحب الوجه يفيض قلبه بالحزن واليأس، ثم مضى إلى مقابلة السيد كارتر ليوافيه بتقرير عن الأحداث، فقال له واجماً والكلمات تتعثر على شفتيه: سيدي، يجب أن أعترف أنني مُنيت بالفشل الذريع.

فرمقه السيد كارتر بنظرة فاحصة ثم سأله: أتريد أن تقول إن...

فقاطعه قائلاً: أريد أن أقول إن المعاهدة السرية بين يدي السيد براون.

- كيف هذا؟ كيف عرفت؟

فروى له ما كان من أمر الأحداث الماضية وما انتهت إليه من الاهتداء إلى المخبأ السري، مخبأ ليس فيه إلا قصاصة ورق تهزأ سطورها من كل من يعثر عليها، فعقّب السيد كارتر بقوله: على أية حال لقد فعلتَ أقصى ما تستطيع من جهد، وإذا كنت قد فشلت فلأنك تناضل ضد عبقري في الإجرام، فلا تبتئس.

- شكراً يا سيدي على هذه المواساة الرقيقة.

ثم تناول السيد كارتر ورقة من فوق مكتبه وقال بلهجة حزينة: أرى أنه من واجبي أن لا أكتم عنك المأساة التي وقعت.

فحملق إليه تومي وقال متسائلاً: ماذا؟ كواتسو؟!

فدفع إليه كارتر بالورقة وهو يقول: أولى بك أن تقرأ بنفسك.

ولم يكن في القصاصة إلا وصف تفصيلي لقبعة خضراء ومنديل عليه الحرفان «ب. ك» وفستان برتقالي عثرت عليها الشرطة ملقاة على شاطئ البحر في منطقة أوبري. واهتزت الكلمات أمام عيني تومي وغمغم يقول: يا إلهي، كواتسو! هل نالها هؤلاء الأوغاد؟ هل قتلوها؟ لا بد أن أنتقم، سأطاردهم حتى أدفع بهم إلى حبل المشنقة.

ثم كفّ عن ذلك حين رأى نظرات الإشفاق تُطل من عيني السيد كارتر، فقال كارتر: نصيحتي إليك أن تنسى يا بني، فهم جبابرة أقوياء.

- أنسى كواتسو؟ محال أن أنساها، ولا بد أن أنتقم. وداعاً يا سيدي.

ثم وقف وغادر الغرفة في خطوات سريعة.

* * *

ما إن رجع تومي إلى فندق ريتز حتى سارع بحزم حقائبه تأهباً للرحيل، وقد وجد في انتظاره خطاباً من السيد جيمس إدغارتون يخطره فيه بأنه عرف أن كواتسو لقيت مصرعها من نبأ

نشرته الصحيفة الجنائية، وأبدى المحامي الكبير مواساته وعطفه البالغ وعرض عليه أن يدبر له عملاً في الأرجنتين، فغمغم تومي يخاطب نفسه: يا له من رجل عظيم كريم القلب!

ثم فُتح باب الغرفة فجأة واقتحم جوليوس المكان مندفعاً كالعاصفة الهوجاء وهو يهتف: هل هذا صحيح؟ هل قتلوها حقاً؟

- نعم، لقد قتلوها.

فقال جوليوس: هذا ما كنتُ أخشاه، فبمجرّد أن ظفروا بالمعاهدة لم تعد لهم حاجة إلى استبقائها كرهينة.

فهب تومي واقفاً، ثم انفجر قائلاً وقد أفلت منه زمام أعصابه: وما الذي يهمك أنت من أمر كواتسو؟ وماذا يكون من شأني، أنا الذي أحبها مذ التقينا منذ عشر سنوات؟ إنها صديقة الصبا.

فقال جوليوس: اسمع يا تومي، أنا...

فقاطعه تومي ثائراً مهتاجاً: اصمت فأنا لا أريد أن أسمع منك شيئاً. هيا اغرب عن وجهي واذهب إلى الجحيم، وإياك أن تحدثني عن كواتسو بعد اليوم، فهي لي وحدي ولا شأن لك بها. هي التي عالجتني يوم أن دخلتُ المستشفى، فعندما كانت تطل عليّ بثياب الممرضات البيضاء أشعر وكأن ملاكاً يدخل عليّ. أجل، ما كان أجملها في زي الممرضات!

وفجأة قفزت فكرة في ذهن جوليوس فهتف يقول: زي الممرضات؟ انتظر لحظة واحدة. تلك الممرضة التي رأيتُها

تتحدث مع هوايتنغ في مصحة الدكتور هول النفسية هي جين فين بعينها وكانت ترتدي زي الممرضات، إذن هي لم تكن ممرضة!

فقال تومي: إذن فهي خائنة، جاسوسة، عضوة في العصابة، وهي التي استدرجت دانفيرس لكي يعهد إليها بالمعاهدة السرية ثم سلمتها إلى العصابة.

فقال جوليوس بحنق وغضب: أنت تهينني. هل نسيت أنها ابنة عمي؟ لا يمكن أن تكون خائنة.

- إلى الجحيم أنت وابنة عمك!

فهبّ جوليوس واقفاً وهو يقول: لكم كنتُ غبياً حين تعاونت معك!

ودق تومي الجرس، فلمّا لبى الخادم النداء قال له: ائتني بالحساب واستدعِ سيارة أجرة وأنزل حقائبي.

ثم التفت إلى جوليوس قائلاً: أنا سأسافر إلى الأرجنتين، فقد عرض عليّ السيد جيمس إدغارتون أن يُلحقني بعمل هناك.

فقال له جوليوس: أما أنا فذاهب إلى شركة السكك الحديدية الغربية حيث لي حاجة هناك أريد أن أنجزها قبل عودتي إلى أمريكا.

فصرخ فيه تومي: اذهب إلى أمريكا أو إلى الجحيم فهذا لا يعنيني بشيء.

خرج جوليوس غاضباً دون أن يحيي تومي. ومشى تومي إلى المكتب القائم في ركن الغرفة ليحرر خطاباً للسيد جيمس يخبره فيه بموافقته على السفر إلى الأرجنتين، ولكنه لم يجد ورقاً ولا مظروفاً، فضغط الجرس ولكن أحداً لم يلبّ نداءه، فقال في نفسه: لا شك أنني أستطيع أن آخذ ما أريد من غرفة جوليوس.

ثم مضى إلى جناح جوليوس المجاور، وكان مطمئنّاً إلى أنه لن يلتقي به ما دام قد ذهب إلى شركة السكك الحديدية الغربية. وفتح الباب، وكان الجناح خالياً فاتجه إلى المكتب وفتح أدراجه يفتش عن ورق ومظروف. واسترعت انتباهَه صورةٌ في قاع الدُّرج فتناولها وأخذ يتأملها، وإذا به تتسع عيناه دهشة وذهولاً؛ ذلك لأنها كانت صورة جانيت تلك الفتاة التي ساعدته على الهرب من وكر العصابة في حي سوهو! ما الذي جاء بصورة جانيت تلك الفتاة الفرنسية إلى يد جوليوس؟ لا بد أن في الأمر سراً، فما يكون هذا السر؟

* * *

الفصل الثاني والعشرون

قال رئيس الوزراء مستطرداً حديثه مع كارتر: إذن فأنت ترى أن الموقف يبعث على اليأس، أليس كذلك؟

فأجاب كارتر: بلى، فهذا ما يراه ذلك الشاب توماس برسفورد.

ثم دفع الوزير بالخطاب الذي كتبه إليه تومي والذي كان هذا نصه:

عزيزي السيد كارتر،

لقد وقعتُ على اكتشاف أذهلني. إن فتاة المصحة النفسية الفاقدة الذاكرة ليست هي جين فين، ويترتب على ذلك أن اللفافة الخاوية التي عثرنا عليها فوق الصخرة والتي أرشدتنا إليها تلك الفتاة لم تكن إلا مشهداً أُخرج ببراعة. وأنا أعتقد أنني أعرف مكان جين فين الحقيقية، وكذلك مخبأ المعاهدة السرية. لقد أرفقت مع هذا الخطاب مظروفاً مغلقاً ضمّنته استنتاجاتي، فأرجو أن لا تفضّه إلا في اللحظة الأخيرة، وعلى وجه التحديد عند منتصف ليلة ٢٨ من هذا الشهر.

لقد ذهبتُ في استنتاجاتي أيضاً إلى أن موت كواتسو غرقاً كان مجرَّد تمثيلية وأنها لا تزال على قيد الحياة في الوقت الحاضر على الأقل، وإليك دوافعي إلى تلك الاستنتاجات: إنهم يسعون إلى العثور على المعاهدة، ولذلك قرروا أن يطلقوا سراح جين فين ظناً منهم أنها ستمضي مباشرة إلى مخبأ اللفافة، فقد كانوا يعتقدون فيما يبدو أنها سليمة لم تفقد ذاكرتها، وإن كان هذا التصرف من جانبهم ينطوي على مخاطرة كبيرة لأنها تعرف كل شيء عن العصابة وقد تفشي أسرارهم. ولكن إذا ثبت لهم أن المعاهدة بين أيدينا فستكون الفتاتان في خطر داهم، ولذلك يجب أن نعثر على كواتسو قبل أن تتمكن جين من الهرب، كما أنني في حاجة إلى أصل البرقية المزورة بإمضائي والتي وصلت كواتسو في فندق ريتز وأدعوها فيها إلى مقابلتي، وقد أشار عليّ السيد جيمس أن أطلبها عن طريقك.

وثمة شيء آخر، وهو أن تأمر بفرض الحراسة الدقيقة على بيت حي سوهو ليل نهار.

توماس برسفورد.

قال رئيس الوزارة متسائلاً: وأين المظروف المغلق الذي أشار إليه في خطابه؟

- لقد أودعته خزانتي السرية في البنك.

فقال الوزير بشيء من التردد: ألا ترى أنه يحسن بنا أن نفضه الآن؟ فإذا صحّت افتراضات الفتى ظفرنا بالمعاهدة في الحال بدلاً من إرجاء الأمر إلى منتصف ليلة ٢٨.

فقال السيد كارتر معترضاً: أنا أؤثر أن ننتظر لأن الجواسيس ينتشرون حولنا في كل جانب، فإذا شعروا بأننا عثرنا على المعاهدة بادروا إلى قتل الفتاتين.

- فلننتظر إذن ما دُمت ترى هذا.

ثم أردف الوزير متسائلاً: ولكن، هل ترى أن الفتى من الذكاء والدهاء بحيث يتسنى له التغلب على تلك العصابة الجهنمية؟

- لا يا سيدي. إنه رجل عصامي ومخلص، وهذا كل ما هنالك. كما أن السيد جيمس إدغارتون إلى جانبه يعاونه بإرشاداته وتوجيهاته.

- إدغارتون المحامي عضو البرلمان؟ إنه رجل قدير، وقد أحسنتم بأن استعنتم به فهو ندّ قوي للسيد براون.

فقال السيد كارتر: ولقد استفدنا من مساهمته معنا في أبحاثنا، فقد بعث إليّ بقصاصة التقطها من إحدى الصحف الأمريكية عن جثة لرجل مجهول عثرت عليها الشرطة على أرصفة الميناء في نيويورك منذ ثلاثة أسابيع، وطلب مني السيد جيمس أن أولي هذا الأمر عناية كبرى.

- ولكن جثة مَن هذه؟

- لا أحد يدري، فقد كان الوجه مشوَّهاً إلى درجة تعذّر معها تمييز ملامحه.

- وهل لهذا علاقة بالقضية التي نحن بصددها؟

- ربما، ولكنني على أية حال رجوت السيد إدغارتون أن يأتي إلى هنا الآن لعله يفصح عما يدور في ذهنه في هذا الشأن.

* * *

في الموعد المحدد جاء السيد جيمس إدغارتون فصافحه رئيس الوزراء في حرارة وترحيب، وقال له كارتر بصراحة ودون مواربة: لقد ورد خطاب من هذا الشاب توماس برسفورد، فهل اطلعت عليه يا سيد جيمس؟

- لا، ولكنه اتصل بي لكي يشكرني على ما عرضتُه عليه بشأن إلحاقه بعمل في الأرجنتين، ثم ذكر لي أنه عثر في أحد أدراج السيد هيرشايمر على صورة لفتاة التُقطت في كاليفورنيا، ثم عقّب بشيء أثار ريبتي؛ فقد قال إن تلك الفتاة هي تلك الفرنسية جانيت التي عاونته على الهرب من بيت العصابة في حي سوهو، وقال إنه ترك الصورة في موضعها في الدرج.

فغمغم كارتر: هذا عجيب.

واستطرد المحامي الكبير: وقد هنّأتُه على اكتشافه العظيم إذ إن له أهمية قصوى، فما دام أن فتاة مانشستر الفاقدة الذاكرة التي عثرنا عليها في مصحة الدكتور هول النفسية ليست هي جين فين الحقيقية فإن الوضع يختلف، ولكن الفتى لم يفطن إلى ما طرأ على الموقف من تغير، فقد كان مشغول الذهن باختفاء الآنسة كاولي ولهذا سألني عما إذا كنتُ لا أزال أعتقد أن كواتسو على قيد الحياة لم تقتل، فأجبتُه بأن هذا هو ما أؤمن به، ثم طلبت منه أن يحصل على أصل البرقية المختومة بتوقيعه

المزور والتي يطلب فيها من كواتسو أن تبادر إلى مقابلته، فقد خطر لي أن بعضهم محا من البرقية المزورة بعض الكلمات بعد أن رمتها الفتاة في سلة المهملات وأبدلها بغيرها كي يخدعونا فنتبع أثراً مضللاً ولا نهتدي إلى مكانها.

فقال كارتر وهو يبرز أصل البرقية المزوَّرة من جيبه: هذا صحيح يا سيد جيمس، لقد كنت على حق في استنتاجاتك؛ فبعد أن قرأت كواتسو البرقية ورمتها في سلة المهملات أبدل شخصٌ مجهول بعض كلماتها.

ثم أخذ يقرأ البرقية الأصلية بصوت عال: «قابليني في الحال في فيلا آستيلي بلدة جيت أستون في كينيت. أحداث هامة. تومي».

واستطرد السيد كارتر: وهكذا ذهبت الآنسة كاولي إلى آستيلي جيت في أستون، في حين لحق بهما تومي وجوليوس إلى فيلا موتي في أيبري طبقاً لما ورد في البرقية التي غُيرت بعض كلماتها بعد أن قرأتها وألقت بها في السلة، فأصبح نصها: «قابليني في الحال في فيلا موتي في أيبري في يور كشير. أحداث هامة. تومي».

تساءل السيد جيمس: هل لديك أية معلومات عن الأمريكي جوليوس هيرشايمر؟ هل تحرّيت عنه يا ترى؟

فأجاب السيد كارتر: لا، أترى من الضروري أن أتحقق من شخصيته؟

أومأ بالإيجاب، وقال رئيس الوزارة متسائلاً: ولكن كيف وصلَت صورة جين فين الأصلية إلى حوزة الأمريكي؟

فقال السيد جيمس: هذا سؤال من شأن السيد كارتر أن يجيب عليه، حيث يجب أن يعرف ما إذا كان السيد براون هو نفسه السيد جوليوس هيرشايمر أم لا.

* * *

بعد يومين حين رجع جوليوس من مانشستر وجد في انتظاره في فندق ريتز الخطاب التالي: «عزيزي هيرشايمر، يؤسفني جداً أنني تُرث عليك فأرجو أن تقبل اعتذاري. أنا أتحدث إليك من الأرجنتين الآن، فقد عُرضت عليّ وظيفة في الأرجنتين واستقر رأيي على الرد بالقبول، فوداعاً لأننا لن نلتقي. تومي برسفورد».

ارتسمت ابتسامة على شفتي جوليوس، ثم قذف بالخطاب إلى سلة المهملات وهو يغمغم: يا له من غبي أحمق!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

بعد أن فرغ تومي برسفورد من حديثه مع جيمس إدغارتون انطلق إلى عمارة أودلي حيث كانت تقيم السيدة فانديمير، فوجد عامل المصعد ألبرت منهمكاً في أعماله فقال له: ألا يمكنك أن تنتحل عذراً ليمنحوك عطلة بضعة أيام؟

فابتسم ألبرت وقال: اختراع العمّات اللائي يُحتضرن ليس بالأمر العسير.

وانتحل ألبرت العذر فأُعفي من عمله، ثم قال سائلاً: كيف حال الآنسة الشرطية السرّية؟

فأجابه تومي: لقد اختطفوها.

- يا إلهي! أرجو أن لا يكونوا قد قتلوها.

- لا زلت آمل أن تكون على قيد الحياة.

ومضيا معاً إلى شيرنج كروس، فاستقلا القطار إلى بلدة جيت أستون حيث نزلا في أحد فنادقها، ثم عهد تومي إلى ألبرت بأن يقوم ببعض التحريات، فما لبث أن عاد إليه بالمعلومات التي يحتاج إليها.

قال له إن فيلا آستيلي ملك لطبيب متقاعد يُدعى الدكتور آدمز، وهو رجل محبوب في القرية حسن السمعة. حيّرت تلك المعلومات تومي، فهل يمكن أن يكون ذلك الطبيب المحبوب الأمين أداة طيّعة في أيدي هؤلاء المجرمين العتاة؟ والمرضى الذين يترددون عليه، أيمكن أن تكون كواتسو منهم؟ وهل جانيت من بينهم؟

كانت الفيلاّ تقوم في وسط حديقة كبيرة مترامية الأطراف يحيط بها سور مرتفع يحجب ما يجري في داخلها عن الأنظار. وفي تلك الليلة صحب تومي حليفه الجديد ألبرت وطافا حول الحديقة يستطلعان المكان، وكان تومي لا يفتأ يسائل نفسه عما إذا كان هناك كلب حراسة يرد الفضوليين، ثم تجاسر وتسلل مع صاحبه الفتى إلى داخل الحديقة وظلا يتقدمان خطوة بعد خطوة في حرص وحذر، حتى بلغا المبنى نفسه. ثم وقفا تحت إحدى النوافذ ينصتان.

كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها والغرفة مضاءة، فاختلسا إليها النظر خفية، فإذا بنفر من الرجال ملتفين حول منضدة كبيرة، وقد كانوا منهمكين في الحديث في حماسة وانفعال، ولكنهم كانوا يتحدثون عن الغولف!

فاستبدت الهواجس بتومي وذهبت به الظنون كل مذهب. هل من المعقول أن يجتمع هؤلاء هنا لكي يتحدثوا عن الغولف؟ تُرى ما الذي يبطنون؟

* * *

في صباح اليوم التالي عهد تومي إلى ألبرت أن يوالي البحث

والتحري، فمضى يسير في القرية يختلط بالناس ويستفسر، ثم رجع إلى صاحبه بالمزيد من المعلومات. أجل، هناك فتاة فرنسية تقيم في الفيلاّ، وقد عرف ذلك من متعهد توريد الألبان. ولم يعد لديه شك بعد ذلك في أن الفيلاّ هي مقر العصابة الخفية التي يرأسها ذلك الغامض السيد براون.

إذن فقد حانت ساعة العمل، ولم يبق إلا يومان على يوم ٢٩ عندما تحلّ الساعة القاضية ويُعلن الإضراب الشامل في البلاد ويقوم شغب تواجهه الحكومة بما تحت يدها من قوات الشرطة والجيش، فتكون ثورة تجتاح البلاد وتعم الفوضى وتسقط الوزارة.

وللمرة الثانية تسلل تومي إلى حديقة الفيلاّ في المساء، وحين اقترب من المبنى متلصصاً تجمدت خطاه وحملق مذهولاً إلى نافذة في الطابق الثاني. لقد اقترب من النافذة شبح ينظر إلى الخارج، فعرف تومي الشبح على الفور. إنها كواتسو دون شك! فلمس ذراع ألبرت وقال هامساً: انظر، ها هي كواتسو. ابقَ هنا وكن حذراً فسوف أبعث إليها بإشارة.

ثم رجع يمشي بالقرب من مدخل الحديقة ومضى يسير مترنحاً وأخذ يصيح بصوت عال مردداً الأغنيات متظاهراً بأنه ثمل، وكانت تلك الأغنية التي أخذ يرددها: «انظري، انظري إلى الزي والسترة... أنا جندي شجاع لا أعرف المذلة لأنني جندي إنكليزي...»، وراح يردد الأغنية مرة بعد مرة ويكرر ويعيد، فانتبهت كواتسو في وقفتها وتوترت عضلاتها. لقد كانت تلك هي الأغنية التي اعتاد تومي أن يتغنى بها في سهراتهما المرحة الضاحكة.

ثم برز من البيت رجلان في ثياب الخدم واتجها إلى مكان تومي بالقرب من مدخل الحديقة وهو يغني ويترنح متظاهراً بالسكر، فأخذ الرجلان بذراعيه وحملاه إلى خارج الحديقة وهو ما زال يصيح بالأنشودة، ثم أجلساه على الرصيف الخارجي وهما يهتفان به: ابتعد عن هذا المكان يا رجل بصوتك الأجشّ الكريه وإلا كتمنا صوتك في حلقك.

ابتعد تومي وهو يترنح وقدماه تخذلانه ولا تقويان على حمله، ولكنه توقف عند الركن منتظراً حليفه ألبرت، ثم أسرع إليه ألبرت بعد قليل وقال له: لقد رأتني من النافذة يا سيدي وأشارت إليّ بأن أنتظر لحظة، ثم قذفت إليّ بهذه الرقعة.

ثم ناوله قصاصة من الورق، ولم يكن مكتوباً عليها إلا ثلاث كلمات: «غداً نفس الموعد».

* * *

في تلك الليلة غرق تومي في نوم سعيد تملؤه أحلام هانئة، ولكنه لم يهنأ بالنوم طويلاً، فعند منتصف الليل أيقظه أحد الخدم من نومه العميق وهو يقول: عذراً يا سيدي، هناك رجل بالباب يلحّ على مقابلتك في الحال إلحاحاً شديداً.

كان الرجل رثّ الهيئة يعلو الغبار ثيابه. قال الرجل: لقد وجدتُ هذا الخطاب بالقرب من فيلا آستيلي ملقى على الأرض بجانب السور يا سيدي.

فتناول تومي الخطاب، وكان مكتوباً على المظروف بخط كواتسو: «سلّم هذا الخطاب إلى السيد الذي نزل بالأمس

في فندق القرية واسمه تومي، وإن كان محتملاً أنه اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً، وسيكافئك بسخاء».

وسأله الرجل: هل أنت مَن تُدعى تومي؟

وأومأ تومي إيجاباً فاستطرد الرجل: إذن فالخطاب لك، فأين المكافأة؟

فمنحه تومي جنيهاً، وكان هذا هو نص الخطاب:

عزيزي تومي،

لقد عرفت أنك أنت الذي كنتَ تغني ليلة الأمس تحت النافذة، لا تحضر اليوم، فقد تقرر أن نسافر هذا الصباح، وقد علمتُ أننا مسافرون إلى هولي هيد. سأرمي هذا الخطاب في الطريق عند السور فور خروجنا إن تسنى لي ذلك، فأرجو أن يقع في يد بعضهم فيمضي به إليك، وقد روت لي جانيت كيف ساعدتك على الهرب.

كواتسو.

فصرخ تومي ينادي ألبرت: ألبرت، جهز الحقائب حالاً.

- هل سنسافر؟

- نعم، إلى هولي هيد، وفي الحال.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

في فندق كلاريدج كان السيد كارامين جالساً إلى مكتبه يكتب بعض الخطابات، فجاء خادم يخطره بأن رجلاً يلح على مقابلته ويُدعى جوليوس هيرشايمر.

دخل جوليوس فابتدره كارامين بقوله: والآن ما الذي تريده مني يا سيد هيرشايمر؟

فابتسم الأمريكي وأجاب برقة ووداعة: لا أريد إلا شيئاً واحداً يا سيد كارامين، ذلك هو أن ترفع ذراعيك إلى أعلى، إلى ما فوق رأسك.

نظر إليه كارامين بدهشة فرأى في يد الزائر الغريب المسدس المصوب إليه، فاتسعت عيناه دهشة وقال: ما معنى هذا؟ أتريد أن تقتلني؟

- لا طبعاً، إلا إذا صرخت مستنجداً.

- هل أنت مجنون؟ هل أصابك الخبل؟ ولكن ماذا تريد؟ أتريد مالاً؟

- لا، أريد جين فين، ودعك من الكذب لأنك تعرف ما

أعني، ولعلك تعرف أيضاً أن مسدسي العزيز توّاق إلى أن يطلق رصاصة تستقر في قلبك.

استشفّ كارامين من نظرات جوليوس المتقدة أنه أمام رجل مخبول لا يتردد في أن يقتل، واستطرد هيرشايمر: قل لي في الحال، أين جين فين؟

- لا أستطيع، فهذا مستحيل. أنا خائف.

فقال جوليوس: هل أنت جبان إلى هذا الحد؟ أتخاف من مجرّد اسم يتردد على الشفاه؟

- ولكنني رأيتُه وقابلته، وإن كان قد أخفى وجهه وراء قناع فلم أتبين معه ملامحه. إنه رجل جبار رهيب وسيقتلني دون رحمة لو علم بذلك.

- وهذه الرصاصة؟ أليست هي الأخرى مخيفة رهيبة؟ فهي أيضاً تستطيع أن تقتل دون رحمة.

ووضع جوليوس يده على الزناد متأهباً لإطلاق الرصاص، فقال كارامين متشبثاً بآخِر أمل لديه: وهل نسيت أنهم سيسرعون عندما يسمعون دويَ الرصاص ويقبضون عليك ثم تُعدم شنقاً؟

فضحك هيرشايمر وقال باستخفاف: أعلم أنهم سيقبضون عليّ ولكني لن أعدم، يبدو يا عزيزي كارامين أنك لا تعرف شيئاً عن تأثير الدولار. أنا رجل من أصحاب الملايين في أمريكا، وبدولاراتي سأجند أشهر المحامين وسيشهد الأطباء بأنني مجنون غير مسؤول عن تصرفاتي، وسيدافع عني المحامون

أحسن الدفاع، ثم تصدر المحكمة قرارها بإيداعي أحد المصحات النفسية، وبعد ثلاثة شهور أو أربعة يقرر الطبيب أنني شفيت فتأمر المحكمة بإطلاق سراحي. والآن دعنا من هذا الحوار الذي لا يُجدي، سأعدّ من واحد إلى أربعة وبعدها أطلق الرصاص.

فارتعد كارامين وشحب لونه حتى حاكى وجوه الأموات، وقبل أن تنفرج شفتا جوليوس عن لفظ «أربعة» كان كارامين قد صرخ: سأتكلم، سأتكلم.

- أين جين فين؟

- في فيلا آستيلي، في جيت أستون في مقاطعة كينت.

- هل هي سجينة؟

- لا، وإن كان لا يؤذن لها بمغادرة البيت، فهي فاقدة الذاكرة.

- وكواتسو؟

- معها في الفيلاّ.

- رائع جداً، هذ يوفر علي مؤونة القيام برحلتين. والآن هيا بنا فقد آن لنا أن نسافر.

- ولكن إلى أين؟

- إلى فيلا آستيلي بالطبع.

فصاح كارامين: ولكنني لن أسافر. أنا أرفض.

- لعلك تريد من مسدسي أن يتولى إقناعك، فأنا لا أستطيع أن أتركك ورائي لتبادر بالاتصال بشركائك هاتفياً وتحذرهم من قدومي. والآن هيا البس معطفك وعجّل واعلم أنني سأسير بجانبك ومسدسي في جيب معطفي وإصبعي فوق الزناد، فإذا حاولت أن تستنجد أو تهرب أرديتك قتيلاً في الحال.

وبعد دقائق معدودات كان الرجلان قد اجتازا بهو الفندق وكارامين مذعن لائذ بالصمت، فاستقلا سيارة جوليوس الرولز رويس، وقال هيرشايمر يخاطب سائقه: جورج، اذهب إلى جيت أستون في كينت بأقصى سرعة ممكنة.

فأجاب جورج: سنكون هناك بعد ساعة واحدة بدلاً من ساعة ونصف يا سيدي.

- حسناً، هيا انطلق إذن.

* * *

أخيراً بلغوا نهاية الرحلة، وتوقفت بهم السيارة أمام باب الفيلاّ ثم نزل الرجلان من السيارة، جوليوس وسجينه، فقال جوليوس يخاطب سائقه: أبقِ المحرك دائراً يا جورج كي تستطيع الانطلاق بأقصى سرعة بمجرّد إشارة مني.

ثم التفت إلى كارامين قائلاً: والآن اضغط الجرس وإياك أن تحاول خداعي؛ فمسدسي لك بالمرصاد، واطلب ممن يفتح الباب أن يستدعي الفتاتين في الحال، جين فين وكواتسو.

- ولكنهم لن يصدقوني وسيدركون أنني خائن.

- انتحل أيّ عذر مناسب.

- و ماذا عن السيد براون؟ سيقتلني.

- وأنا سأقتلك أيضاً. السيد براون قد يقتلك وقد لا يفعل، فأنت تستطيع أن تهرب في الحال إلى خارج البلاد.

وكان هوايتنغ هو الذي فتح الباب بنفسه فهتف به كارامين بسرعة: هيا أحضر الفتاتين في الحال، وأسرع بالله عليك.

- ولكن لماذا؟ ما السبب؟

- لقد اكتشفت الشرطة أنهما مقيمتان هنا.

- وهل أمر السيد براون بهذا؟

- وهل كنتُ أجرؤ على أن أطلب هذا لولا أنه هو الذي أمرني.

تردد هوايتنغ برهة فاستحثه كارامين فدلف إلى الداخل، ثم عاد بعد لحظات وفي صحبته الفتاتان، فدفع جوليوس الفتاتين إلى داخل السيارة وتراجع إلى الوراء، ثم قفز إلى السيارة وهو يدفع كارامين أمامه إلى داخلها، وعندئذ صرخ كارامين: أطلقوا النار، أطلقوا النار، هذا الرجل من أعدائنا وقد اختطف الفتاتين.

فهُرع الخدم من الداخل وشهر هوايتنغ مسدسه، وبدأت الرصاصات تنهال تباعاً ومسدس جوليوس يرد عليها، وذلك في اللحظة التي مرّت فيها السيارة من بوابة الحديقة طائرة إلى الطريق العام.

قالت كواتسو متسائلة: ولكن أين تومي؟

فأجاب: لقد اعتقد أنك قُتلتِ فسافر إلى الأرجنتين. والآن اسمحي لي يا كواتسو أن أقدّم إليك صديقنا العزيز السيد كارامين، فهو الذي أرشدني إلى مخبئك تحت تهديد المسدس طبعاً.

ثم التفت جوليوس إلى سائقه قائلاً: انحرف إلى أحد الطرقات الجانبية حتى لا يلحقوا بنا.

فقال كارامين: أنا لن أستطيع أن أبقى لحظة واحدة في إنكلترا بعد الآن، فهم سيتعقبونني ويقتلونني وقد علموا أنني خنتهم وغدرت بهم. أرجو أن تنزلني من السيارة.

فقال جوليوس: تريد أن تنزل هنا في هذا المكان غير المعروف، لن تجد سيارة تنقلك إلى لندن، ولكن بمجرّد أن نصل لندن سأسمح لك بالنزول.

وقبل أن يفرغ جوليوس من عباراته كانت السيارة قد بلغت أحد مفارق الطرق وتوقفت عند إشارة المرور الحمراء، فإذا بكارامين يفتح الباب ويقفز إلى الطريق هارباً.

وقبل أن تتغير إشارة المرور إلى اللون الأخضر إذا بوجه يطل عليهم من خلال نافذة السيارة، فهتف جوليوس بذهول: يا إلهي، تومي! كيف جئت؟ لقد حسبتك في الأرجنتين!

ثم فتح له باب السيارة فدخل إليها، وامتدت يده تصافح كواتسو بحرارة وشوق، ثم أجاب: لقد كنتُ مختفياً في حديقة الفيلاّ وراء الأشجار أترقب فرصة لدخولها، فلما رأيتُ سيارتك تسللت خفية وتعلقت بالحقيبة الخلفية مترقباً ما سوف يحدث.

فقال جوليوس فجأة: انظروا. تلك هي سيارتهم دون شك. لقد لاحظت أنها تقتفي أثرنا منذ فترة فكلما انحرفنا في طريق جانبي انحرفت وراءنا.

فقال تومي: والآن ما العمل؟ قد يلحقون بها ويستعيدون الفتاتين.

ثم استطرد تومي موجهاً الحديث إلى كواتسو: عندما نبلغ إشارة المرور التالية عند منعطف الطريق وتقف السيارة انزلي منها يا كواتسو ومعك جين فين، فهم لن يلحظوا أنكما نزلتما من السيارة، ثم اذهبا على الفور إلى بيت السيد جيمس إدغارتون فهناك ستكونان في أمان.

فصاح جوليوس معترضاً: لا، لا، لا تفعلا ذلك.

وفجأة أخرج تومي مسدسه وصوبه إلى جوليوس وهو يهتف بالفتاتين: هيا انزلا، وأسرعا.

فنزلت الفتاتان بسرعة ودارتا حول الناصية حتى لا يشاهدهما المطاردون. وأعاد تومي مسدسه إلى جيبه وتابعت السيارة طريقها، فغمغم جوليوس: ما هذا الذي فعلت يا تومي؟ كيف تصوب إليّ مسدسك؟ لا بد أنك جننت.

ولم يجب تومي كأنما لم يسمع هذا العتاب.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

استقلت الفتاتان القطار راجعتين إلى لندن، وطَوال الطريق كانت كواتسو ترتعد رعباً كلما رأت أحداً يتمشى في دهليز القطار أو يطل على مقصورتها، وأخيراً انتهيا إلى بيت جيمس إدغارتون حيث سكنت مخاوفها وتبددت هواجسها. وتلقى المحامي الكبير الفتاتين مرحّباً، ثم قال يخاطب كواتسو: إذن فلم تقتلك العصابة يا آنسة كواتسو، لا أنتِ ولا صديقك تومي؟

ثم تحول إلى الفتاة الأخرى وقال متسائلاً: ومن تكون صاحبتك هذه؟ أهي الآنسة جين فين؟

وأومأت جين فين برأسها وهي تقول: نعم، أنا جين فين. أتحب أن تستمع إلى قصتي؟

فأجاب المحامي الشهير: لك هذا إذا شئت.

وأنشأت جين فين تروي قصتها. قالت إنها لا أهل لها وإنها جاءت إلى إنكلترا من أمريكا على ظهر الباخرة الباسيفيك سعياً وراء العمل، فقد عُيّنت مدرّسة في إحدى المدارس الداخلية في باريس، وقالت إنه عند غرق الباخرة وإنزال قوارب النجاة اقترب منها شخص لا تعرفه فعهد إليها بلفافة صغيرة وطلب

منها أن تخفيها وتحرص عليها، ومتى وصلت إلى إنكلترا فعليها أن تقرأ الإعلانات المبوبة في صحيفة التايمز، فإن لم تجد فيها إعلاناً يتضمن كلمات معينة فيجب أن تمضي بالوثيقة السرية إلى السفير الأمريكي وأن تسلمها إليه يداً بيد.

ثم قالت: ولكن الذي حدث بعد ذلك كان كابوساً مزعجاً مخيفاً، فقد كانت معي في مقصورة القطار الذي أقلّني إلى لندن سيدة من الناجيات من الغرق يصحبها رجل لم ألمحه من قبل بين ركاب الباسيفيك، وقدّمت لي نفسها باسم السيدة فانديمير وأخذت تقترب مني في أثناء الرحلة محاولة أن تعقد معي أواصر الصداقة، فتوجست خيفة منها وخطر لي أنها تريد أن تسرق الوثيقة السرية، فما كان مني إلا أن ذهبتُ إلى دورة المياه وفضضت اللفافة التي عهد بها إلي السيد دانفيرس وأخرجت منها الوثيقة، وكانت عبارة عن ثلاث ورقات من الورق الشفاف مكتوبة بخط دقيق، وكانت معي مجلة فطويت الأوراق الثلاث الرقيقة ووضعتها بين صفحتين من صفحات المجلة وألصقت حوافّها الخارجية بمادة لاصقة، ثم وضعت داخل اللفافة ورقة بيضاء بدلاً من الوثيقة السرية وأعدتها سليمة كما كانت، ثم رجعت إلى مقصورتي في القطار والمجلة المصورة في جيب معطفي وأنا مطمئنّة البال، فإذا كانت السيدة فانديمير جاسوسة واستطاعت أن تستولي على اللفافة المخبأة في حقيبة يدي فإنها لن تجد فيها إلا ورقة بيضاء لا قيمة لها.

وحين عدت إلى المقصورة أطبقت عيني وتظاهرت بأنني نائمة، ولكنني كنتُ أختلس النظر في نصف إغماضة إلى السيدة فانديمير وصاحبها، فرأيت الرجل يخرج شيئاً من جيبه لم أتبينه،

ثم نظر إلى صديقته وغمز لها بعينه فسمعتها تهمس له: "هيا بنا"، وانقضت السيدة فانديمير عليّ ووضعَت فوق أنفي منديلاً مبلّلاً بسائل مخدر.

ولا أدري كم مضى عليّ من الوقت حتى استفقت من إغمائي ووجدتُني راقدة على سرير قذر، وقد داهمني صداع يكاد رأسي معه أن يتفتت. وكان هناك حاجز قائم أمام السرير، ومن وراء ستار جاءني صوت السيدة فانديمير وهي تتبادل الحديث مع شخص آخر. ولم أفقه ما يقولان في بداية الأمر لفرط ما كان يعتري ذهني من اضطراب بسبب الضربة التي تلقيتُها فوق رأسي، فلما تمالكت نفسي أدركتُ أنهم قصوا اللفافة فلم يعثروا فيها على الوثيقة السرية ولم يجدوا إلا الورقة البيضاء فاستبدّ بهم الغضب، ولم يخطر ببالهم أنني أنا التي قمت بهذا الإبدال بل ظنوا أن السيد دانفيرس هو الذي فعل ذلك حيطة وحذراً حتى يخدع مطارديه من الجواسيس في حين بعث بالوثيقة ذاتها إلى صاحب الشأن بطريقة ما. وقد فهمت من حديثهما أنهما ينويان تعذيبي حتى أُدلي بما لدي من معلومات فاستولى عليّ الرعب حتى لقد خُيل إليّ أن دقات قلبي تعالت وملأت الغرفة ضجة وصخباً.

استبد بي الفزع خوفاً من التعذيب وأخذت أفكر فيما ينبغي أن أفعل وهل يمكن أن أتسلل هاربة، وعندئذ خطرت لي فكرة. لماذا لا أتظاهر بأني فقدت ذاكرتي؟ واستعدت إلى ذهني ما سبق أن قرأته عن فقدان الذاكرة وأعراضها فاستقر رأيي على أن أقوم بتمثيل هذا الدور، فإذا وُفّقت في أدائه وجازت عليهم الخدعة فقد نجوت من التعذيب الذي ينتظرني. ثم بدأتُ بأن تعمدت أن

أنظر حولي نظرة بلهاء شاردة وجعلت أغمغم ببعض الكلمات الفرنسية لأوقع في روعهم أنني نسيتُ لغتي الإنكليزية.

وحين سمعَت السيدة فانديمير صوتي وعرفت أنني أفقت من إغمائي جاءت إليّ وشرر الغضب يتطاير من عينيها وقالت للرجل الذي كان متوارياً وراء الحاجز أنني أفقت، ثم شرعتُ في تمثيل دور فاقدة الذاكرة فجعلت أتساءل أين أنا وما الذي جاء بي إلى هذا المكان، فسألتني السيدة فانديمير عن اسمي فأجبتها بأني لا أعرفه ولا أذكر شيئا على الإطلاق، فأمسكَت السيدة فانديمير برسغي ولوت ذراعي بكل قوتها، فشعرت بأن عظامي تكاد تتهشم وانتابني ألم شديد فصرخت متوجعة، ولكنني تماسكتُ وصمدت إلى أن خارت قواي. وكدت أعترف بأنني لم أفقد ذاكرتي، ولكن الأقدار كانت بي رحيمة وكان آخر شيء سمعته قبل أن أفقد الوعي هو صوت الرجل المستتر وراء الحاجز وهو يقول: ما أحسبها تحاول أن تخدعنا، فمن كانت في مثل سنها لا يمكن أن تفكر في مثل هذه الخدعة.

ويبدو أن الرجل أمر السيدة فانديمير بأن تكف عن تعذيبي، وعندما أفقت من إغمائي أقبلت عليّ تبدي عطفاً ورقة وأحسنت معاملتي، ثم قالت لي (بالفرنسية طبعاً) أنني أصبت بصدمة عصبية وأنها ستعرضني على طبيب يفحصني، ثم غادرَت الغرفة فنهضتُ من فراشي وأخذت أتجوّل في المكان ألتمس وسيلة للهرب، فرأيت أن الجدران صماء ليست بها نافذة واحدة. وكانت على الجدران أربع لوحات تمثل بعض المشاهد المنقولة عن رواية فاوست، ودب اليأس في قلبي وعرفت أنه لا سبيل إلى الفرار.

ورأيتُ معطفي ملقى على الأريكة تطل من جيبه المجلة المصورة التي سبق أن أخفيت الوثيقة السرية بين صفحاتها، وكان لا بد أن أفعل شيئاً حيال تلك الوثيقة إذ لم يكن مستبعَداً أن يأخذ أحدهم المجلة ليتصفحها فيكتشف مخبأ الوثيقة بين الصفحتين الملصقتين، ثم جلستُ على الفراش وأخذت رأسي بين كفي وجعلت أبكي وأنا أتوجع وأتأوه، وتلك بعض أعراض فقدان الذاكرة كما عرفتُ من الكتب التي قرأتها فيما مضى، فأسرعت السيدة فانديمير بدخول الغرفة مما أكد لي أنهم كانوا يراقبونني من ثقب خفي، وأخذت السيدة فانديمير تتحدث إليّ برقة وسألتني عما إذا كنتُ أعرفها، ثم قالت لي إنها عمتي وطلبت منّي أن أناديها بالعمة ريتا وأكدت لي أن ذاكرتي سوف تعود إليّ بعد أن أعالَج.

ولما هبط الليل أطفأت المصباح النفطي وأويت إلى سريري، وحين هدأت الأصوات ونام الجميع تسللتُ من الفراش فأخذت المجلة المصورة من جيب معطفي وانتزعت الوثيقة السرية من بين الصفحتين الملصقتين، ثم تحسست الجدار ونزعت اللوحة الأولى من لوحات فاوست (وهي الصورة التي تمثل مرغريت حاملة صندوق جواهرها) ورفعت الورقة الكرتون الموضوعة وراء الصورة وأخفيت الوثيقة بين الصورة والكرتون، ثم أعدتها كما كانت عليه وأعدتها إلى موضعها من الجدار.

وبعد ذلك نقلوني إلى مصحة الدكتور هول النفسية ليتولى علاجي. ويبدو أنهم كانوا مترددين في أمر الوثيقة السرية، فبعضهم يعتقد أن السيد دانفيرس بعث بها إلى أصحابها بطريقة ما قبل أن يستقل الباخرة الباسيفيك وبعضهم يعتقد أنني أنا التي

أودعتها مخبأ خفياً بعد نزولي من قارب النجاة أو في أثناء رحلتي إلى لندن، ولذلك آثروا أن يُبقوا على حياتي وأن يعالجوني، حتى إذا شفيت ورجعت إليّ ذاكرتي تسنى لهم أن يرغموني على الإفضاء بمخبأ الوثيقة، ولهذا فرضوا عليّ رقابة شديدة في المصحة النفسية فأقاموا بجانبي ممرضة من أعوانهم تلازمني طَوال الوقت.

وهكذا تتابعت الأيام ثم الشهور وأنا حبيسة المصحة النفسية أتظاهر بفقدان الذاكرة وأتحين فرصة للهرب، ولكن دون جدوى. وفي إحدى الليالي وعلى حين بغتة جاؤوا إليّ فأخذوني وعادوا بي إلى ذلك البيت في حي سوهو وعهدوا إليّ بالقيام بالأعمال المنزلية وأن أتولى تقديم الطعام إلى رجل محبوس في الغرفة الصماء الخالية من النوافذ، وهي نفس الغرفة التي سبق أن حُبستُ فيها، وكان ذلك السجين الجديد هو السيد توماس برسفورد. وبعد ظهيرة أحد الأيام، وكان يوم الأحد، سمعتهم يتحدثون عن أمر صدر إليهم بإعدام السيد برسفورد، فقررت أن أنقذه قبل أن يبطشوا به وعاونته على الهرب، ولا داعي لأن أسرد عليكما التفصيلات فأنتما تعرفان ما حدث.

وعندما فرغت جين فين من قصتها قال السيد جيمس إدغارتون: إذن فالوثيقة السرية ما زالت في مخبأها بين الصورة والغلاف الكرتون؟

وحينما ردت الفتاة إيجاباً نظر السيد جيمس إلى ساعته وقال: إذن هيا بنا إلى ذلك البيت في حي سوهو.

قالت كواتسو: في هذه الساعة؟ لنرجئ الأمر إلى الغد.

فأجابها السيد جيمس باقتضاب ووجوم: غداً يكون الوقت قد فات، كما أننا إن ذهبنا اليوم فسوف تُتاح لنا الفرصة للقبض على ذلك المجرم الخطير السيد براون.

وساد الصمت برهة، ثم استطرد السيد جيمس إدغارتون: لا شك أن هناك من تعقبكم خفية عند حضوركم الآن إلى بيتي، وعند خروجنا سيقتفون أثرنا دون أن يتعرضوا لنا بالأذى لأن خطة السيد براون هي أن يترك جين فين حرة طليقة حتى ترشده إلى مكان الوثيقة، كما أن بيت حي سوهو محاط برجال الشرطة يحرسونه، ومع ذلك فلن يصعب على السيد براون أن يدخله في أعقابنا دون أن يخاطر بنفسه لأنه لن يدخله بصفته السيد براون بل بصفته صديقاً لمن يتعاونون معنا في مطاردة السيد براون. أجل، السيد براون سيدخل بيت حي سوهو في إثرنا متستراً وراء قناع أحد الأصدقاء.

واحمرّ وجه كواتسو وقالت تخاطب جين فين وهي تتحاشى أن تنظر إليها: هناك شيء نعرفه نحن ولا تعرفينه أنت يا جين.

- بل يجب أن لا تكتمي عنها شيئاً يا آنسة كواتسو.

- ولكنها لن تصفح عني أبداً. طبعاً أنت تعرف من يكون السيد براون يا سيد جيمس؟

فقال بنبرة حزينة: طبعاً أعرف؛ فمنذ قُتلت السيدة فانديمير وأنا أعرف من يكون السيد براون. إنها مسألة منطق بسيط، فليس هناك إلا تفسير واحد لمصرعها، فإما أن تكون هي التي تناولت المنوم بنفسها، وهذا أمر غير معقول، وعندئذ لا يبقى لدينا إلا التعليل الثاني.

ثم استطرد قائلاً: وهو أن يكون المنوّم قد وُضع لها في العصير الذي تناولته، ولم يقترب من ذلك العصير إلا واحد من ثلاثة، أنت يا آنسة كواتسو، أو أنا، أو السيد هيرشايمر. وطبعاً ليس من المستساغ أن نستريب في السيد شايمر وهو ذلك المليونير الأمريكي الفاحش الثراء، ولكن منطق الأحداث يقول غير هذا، فعندما كنت أنتِ تتحدثين إلى السيدة فانديمير وتحاولين إغراءها كي تفشي لك سر العصابة لقاء مئة ألف جنيه، أتذكرين الرعب الذي استولى عليها وكيف أغمي عليها بمجرّد أن رأت السيد هيرشايمر فجأة في مدخل الغرفة؟ لقد استربت في أمره منذ تلك اللحظة، وقد أيّد شكوكي ما ذكره لي السيد برسفورد أخيراً عندما اتصل بي هاتفياً وأبلغني أنه عثر على صورة جين فين في دُرج السيد هيرشايمر، فلماذا أخفاها عنا وتركنا طَوال الوقت نعتقد أن المرأة التي أُصيبت في حادث السيارة والتقينا بها في المستشفى هي جين فين؟ في حين يعرف أنها امرأة كاذبة مدّعية من أفراد العصابة لأنه هو الوحيد الذي يعرف جين فين الحقيقية لأنه يحتفظ بصورتها لديه.

فصرخت جين فين تقاطعه وهي تستمع إلى الحديث: ما هذا الهراء؟ أتريدون أن تقولوا إن ابن عمي جوليوس هو السيد براون؟

فأجابها السيد جيمس: لا يا عزيزتي، ابن عمك ليس هو السيد براون، فالرجل الذي قدم إليكِ باسم هيرشايمر لا يمت إليك بصلة القربى، بل هو مدّعٍ كاذب انتحل شخصية ابن عمك.

* * *

الفصل السادس والعشرون

نزلت هذه الكلمات على الفتاتين نزول الصاعقة فجعلتا تحملقان في السيد جيمس إدغارتون بدهشة وذهول، فمشى السيد جيمس إلى مكتبه وتناول من أحد أدراجه قصاصة من صحيفة أمريكية وناولها إلى جين فين وهو يقول: لقد سبق أن بعثتُ إلى السيد كارتر بقصاصة مثلها، وهي عن رجل مجهول الشخصية وُجد قتيلاً في نيويورك منذ بضعة أسابيع، وقد طلبتُ منه أن يتحرى عنه كما قمت من جانبي ببعض التحريات، فعرفت أن اعتداء وقع على السيد هيرشايمر ليلة سفره إلى أوروبا وأنه قُتل وسُرقت أوراقه الشخصية وما كان يحمل من نقود، كما شوّه المعتدون وجهه حتى لا يهتدي أحدٌ إلى شخصيته الحقيقية. ولذلك كان من السهل على قاتله أن ينتحل شخصيته، خاصة وأنه ليس في إنكلترا من سبق أن التقى بالسيد هيرشايمر، فإذا قَدِم إلينا هذا المدعي المزيف منتحلاً شخصية ابن عمك فلن يداخل الشك في أمره أحداً منا، وظل يخالطنا ويطّلع على خططنا ويشاركنا في البحث عن السيد براون دون أن يخطر ببال أحد منا أنه هو نفسه السيد براون.

وصمت السيد جيمس برهة قبل أن يستطرد: وحدث أن

وقع السيد براون في غرام السيدة فانديمير فأفضى إليها بسره الخطير وكشف لها عن شخصيته الحقيقية، وعندما أغرت الآنسة كواتسو فانديمير بالمال ووعدتها بمئة ألف جنيه إن هي أفضت إليها باسم السيد براون الحقيقي اضطر إبقاء على سرّه أن يقوم بخطوة حمقاء متسرعة فوضع لها المنوم في العصير حتى يتخلص منها قبل أن تشي به، فكان هذا أول بادرة أثارت شكوكي في السيد هيرشايمر.

فقالت جين: ولكن إذا كان هيرشايمر هو نفسه السيد براون فلماذا ساعدَنا على الهرب وأنقذنا من براثن العصابة حين أرغم السيد كارامين على أن يصحبه إلى وكر العصابة تحت تهديد مسدسه؟

فأجاب السيد جيمس: كان ذلك مجرّد مشهد تمثيلي أراد من ورائه أن يعرف مخبأ الوثيقة السرية، فقد كان يعرف أنكِ بمجرّد إطلاق سراحك ستذهبين فوراً إلى حيث أخفيت الوثيقة، وعندئذ يكون من السهل عليه أن يستولي عليها ثم يقتلك وكواتسو بعد ذلك. ولكن تومي الذي كان يرتاب في أمره أفسد عليه تدبيره بأن أنزلكما من السيارة وطلب منكما أن تحضرا إلى بيتي حيث تكونان في أمان، ولعلكما تذكران أن هيرشايمر اعترض على هذا التصرف ولكن تومي هدده بمسدسه، فاضطرّ إلى إيقاف السيارة وترككما تنزلان منها.

سادت فترة غير قصيرة من الصمت، ثم نهض جيمس إدغارتون فتناول مسدساً من درج مكتبه وضعه في جيبه وهو يقول: والآن هيا بنا إلى بيت حي سوهو لنستردّ الوثيقة السرية.

* * *

توقفت السيارة أمام وكر العصابة، وكان رجال الشرطة يحرسونه من كل جانب. وتحدث السيد جيمس إلى الضابط المسؤول فأذن له بدخول البيت مع الفتاتين، وارتقوا الدرج مسرعين إلى الغرفة المعلقة بين الطابقين، تلك الغرفة الخالية من النوافذ، وكانت اللوحة لا زالت في موضعها فوق الجدار، فتناولت جين فين اللوحة المنشودة ورفعت الصورة قليلاً ثم وضعت أصابعها وراءها، وحين سحبتها كانت الوثيقة السرية في يدها.

فمدّ السيد جيمس إدغارتون يده وتناول الوثيقة من يد جين فين وألقى عليها نظرة عجلى، ثم قال: تماماً. تلك هي الوثيقة التي طال بحثنا عنها.

ثم وضع الوثيقة في جيبه، ولكنه عندما أخرج يده من الجيب لم تكن فارغة خاوية بل كان فيها مسدس صوّبه إلى الفتاتين وهو يقول: والآن أحسب أنكما في شوق إلى رؤية السيد براون؟ إذن فاعلما أنني أنا السيد براون الذي تبحثون عنه.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة رهيبة ثم استطرد: والآن حانت منيتكما. رصاصة واحدة في قلب كل منكما فتموتان، وبعدها أغادر البيت وحدي لأنشر الوثيقة في طول البلاد وعرضها، ثم يعلن الإضراب وتعم الفوضى وتقوم الثورة، وعندئذ يحل دوري فأتقدم إلى المسرح وأستولي على السلطة.

ثم ضحك ضحكة رهيبة زلزلت أرجاء الغرفة، ورفع يده وهو يقول: لقد انتهت مهمتكما، وشكراً لكما.

ولكن قبل أن يتحرك إصبعه إلى الزناد برز تومي برسفورد

من ورائه فجأة وعاجله بضربة أطاحت بالمسدس على الأرض، فاستدار السيد جيمس مذعوراً فرأى تومي منتصباً أمامه والمسدس في يده، فهتف السيد جيمس بدهشة: أنت، أنت؟!

- نعم، أنا، فقد كنت أرتابُ فيك منذ فترة طويلة يا سيد براون.

فضحك جيمس بمرارة وغمغم: وأنا الذي ظننت أنني خدعت الجميع!

وكان في إصبعه خاتم ذو فص كبير الحجم، فرفع إصبعه إلى شفتيه وأزاح فص الخاتم، ثم لعق السم الذي كان يختزنه في تجويف الفص، فترنّح وتخاذلت ركبتاه ثم تهاوى إلى الأرض جثة هامدة، فغمغم تومي: هذه هي النهاية يا سيد براون، نهاية المطاف.

* * *

الفصل السابع والعشرون

كانت مأدبة رائعة فاخرة تلك التي أقامها السيد هيرشايمر في فندق ريتز ودعا إليها جميع من اشتركوا في تلك الأحداث، وبعدما فرغوا من العشاء اجتمعوا في قاعة الاستقبال وأخذوا يستعيدون ذكريات تلك الأيام العصيبة التي عصفت بهم، فقال السيد هيرشايمر: منذ اللحظة الأولى شعرت بكراهية نحو ذلك الرجل، السيد جيمس إدغارتون. وكانت الشكوك تراودني في بعض الأحيان، ثم أعود فأخطّئ نفسي معتقداً أنني أتجنّى عليه بريبتي. أما تومي فكان فيما يبدو على يقين من أنه السيد براون.

قالت كواتسو: أما أنا فكنتُ أثق به ثقة عمياء.

فانبرى السيد كارتر يقول: والآن هل لك يا تومي أن تروي لنا كيف ارتبتَ في أمره؟

فأنشأ تومي برسفورد يسرد القصة قائلاً: عندما قُتلت السيدة فانديمير بالسم الذي تناولته مخلوطاً بالعصير لم يداخلني شك في أن القاتل لا بد أن يكون واحداً من اثنين، السيد جوليوس هيرشايمر أو السيد جيمس إدغارتون. وبعد ذلك عثرتُ على

صورة جين فين في دُرج هيرشايمر فاتجهت شكوكي إليه، ولكنني عندما تذكرتُ أن السيد جيمس هو الذي اكتشف مقر جين فين المزيفة وأنه هو الذي قدمها إلينا حرت بين الاثنين وجعلت أسائل نفسي: من يكون السيد براون؟ هذا أم ذاك؟ السيد جيمس أم السيد هيرشايمر؟

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً: واستقر رأيي على خطة معيَّنة تتكشف لي بها الحقيقة، فبعثتُ إلى السيد هيرشايمر بخطاب أُخطره فيه بأنني راحل إلى الأرجنتين، وكنت قد أطلعتُه على خطاب السيد جيمس الذي وعدني فيه بأن يُلحقني بعمل في تلك البلاد كي يطمئنّ إلى أنني مسافر حقاً إلى الأرجنتين، ثم اتصلت بالسيد كارتر وأفضيت له بشكوكي، وكذلك تحدثت في الأمر هاتفياً إلى السيد جيمس لأبثّ في نفسه الاعتقاد بأنني أثق به وأطمئن إليه. ولكن حدث بعد ذلك أن أنقذ السيد هيرشايمر الفتاتين جين فين وكواتسو من وكر العصابة، فاهتزّت ريبتي فيه واستبعدتُ أن يكون هو السيد براون، وهكذا ظللت مزعزَع اليقين لا أدري أيهما هو السيد براون الحقيقي! وعندئذ تلقيتُ رسالة من كواتسو فتبينتُ على الفور أن الرسالة مزوَّرة وأن الخط مقلَّد تقليداً متقناً.

فسألته كواتسو: ولكن كيف عرفت أنها رسالة مزورة؟

فأجاب تومي: كان الخط متقَن التقليد فلم أشكّ فيه، ولكنني ارتبت في التوقيع.

فتساءل السيد كارتر: أكان التقليد غير متقَن؟

- لا، ولكن كواتسو اعتادت حين تكتب إليّ أن تذيّل

خطاباتها بكلمة «كوات» بدلاً من «كواتسو»، وعند ذلك قلت لنفسي: الذي زوّر هذا الخطاب الذي جاءني لا يعرف شيئاً عن طريقة كواتسو في توقيع رسائلها إليّ. وتذكرتُ أنني أطلعت السيد هيرشايمر على أحد خطابات كواتسو، فاستبعدتُ أن يقع في مثل تلك الغلطة، أما السيد جيمس فلم يرَ أيّ خطاب من خطاباتها فلا بدّ أن يكون هو الذي زوّر الرسالة. إذن فالسيد جيمس لا بد أن يكون هو السيد براون.

ونظر تومي إلى السيد هيرشايمر ثم استطرد قائلاً: واستقر رأيي على أن أنصب كميناً للسيد جيمس حتى أضبطه متلبساً، فعندما أنقذ هيرشايمر الفتاتين وأخذهما في سيارته طلبتُ منهما أن تنزلا من السيارة وأن تذهبا إلى بيت السيد جيمس، وقررت أن أراقب ما سوف يحدث. وطبعاً كنت أتوقع أن يأخذ السيد جيمس الفتاتين إلى بيت حي سوهو ليستولي على الوثيقة السرية، ولهذا كمنت في وكر العصابة مترقّباً حضوره. وفعلاً ما لبث أن جاء ومعه الفتاتان، ثم كان ما كان من استيلائه على الوثيقة ومحاولته قتل الفتاتين فبرزت إليه من مكمني وأطحت المسدس من يده، فما كان منه وقد أدرك مغبة فعله إلا أن تناول السم وانتحر، فكانت هذه هي نهاية المطاف.

فانبرى السيد جوليوس هيرشايمر يقول: لا أيها السادة، ليست هذه هي نهاية المطاف، ما زالت للقصة بقية.

قال تومي بدهشة: للقصة بقية؟ وما هي يا تُرى؟

فأجاب هيرشايمر: بقية القصة هي أنني سأتزوج ابنة عمي جين فين.

وهتف تومي قائلاً: وثمة بقية أخرى، وهي أنني سأتزوج كواتسو صديقة الطفولة وحبيبة العمر.

* * *

(تمت)